الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية –
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة الأدب العربي

أدب السُّجون في الأدب العربيّ
تلك العتمة الباهرة للطَّاهر بنجلُّون أنموذجًا

مذكرة تخرُّج مقدَّمة لنيل شهادة الماستر في اللُّغة والأدب العربي

تخصُّص: أدب حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:
زكية جاب الله

إشراف الأستاذة:
سعاد أوشايت

السنة الجامعية: 2022-2023

إهداء

إلى روح الكاتبة الأمازيغية ديهيا لويز

إلى روح جميع النّساء اللّواتي ظلمتهن الحياة.

إلى روح ضحايا الرّبيع الأمازيغي وحرائق منطقة القبائل.

إلى روح كل الذين ماتوا ظلمًا في غياهب السّجون.

إلى الأستاذة سعاد أوشايت التي كانت سندا لي من البداية.

إلى وَالِدَيَّ نور عينيّ، أعدكما أنّي سأحقق أهدافي كي أجعلكما تفتخران بي، وعساي أردّ لكما الجميل مقابل كلّ تضحياتكما لأجلي.

لكلّ عائلة "جاب اللّه"، خاصّة أخواتي: "فوزية"، "حسيبة"، و"أمينة" وعمّتي "عائشة" مربّيتي وخالتي "مليكة تيفرة" التي كانت أوّل من علّمتني سحر الحكاية.

إلى صديقاتي اللّواتي أهدتهن الحياة لي "جنّان سهيلة" المبتسمة دائما رغم قساوة الحياة، "بوكردوس سعيدة" صاحبة أجمل ابتسامة صديقتي المميزّة والقويّة، التي جمعنا الأدب معا، ممتنّة للقدر الذي جمع بيننا، "بن خلوف مريم" ذات القلب الطيّب التي تصنع طريقها بنفسها، رقيقة وصلبة في آنٍ واحد، إلى صديقة طفولتي "ليدية أوقاسي" ووالدتها "حياة غربي".

جاب اللّه زكية

شكر وعرفان

يشرّفني أنْ أختتم مشواري الدّراسي بالتوجّه بالشكر لأساتذتي، فإن كان لأحد الفضل فيما تعلّمته ووصلت إليه فبسببهم، سواءً أساتذتي في الجامعة أو في الثانويّة كالأستاذ "فرقنيس لياس" أستاذي في اللّغة الأمازيغية.

أتقدّم بشكري لكل من "د.لونيس بن علي" لترشيحاته لروائع الأدب وكتاباته الرائعة المفيدة، و"د.عدنان فوضيل" و"الهادي بوديب" على التّحفيز والنّصائح التي يقدّمونها لي، وعلى كونهم من أفضل الأساتذة الذين درّسوني سواءً في مدرسة الحياة أو في الأدب، دون أن أنسى "سعيد شيبان" الذي كان نعم أستاذ ولم يبخل علي بكتبه التي استفدت منها، بالإضافة للأستاذين الكريمين "سعيد إباون" و" لحبيب عمي" على كلّ المعلومات القيّمة التي درّسوها لنا كطلبة واجتهادهم في أداء واجبهم النّبيل، دون أن أنسى الأستاذ "عمار آيت عيسى" الذي لا يبخل عليّ بنصائحه المهمّة والمفيدة وشكرا على كلّ ما قمت به لأجلي.

أتشرّف بالتقدّم بالشكر والعرفان الخاص والمميّز لأساتذتي: "سعاد أوشايت" مشرفتي ومعلّمتي، وإلى الأستاذة "كريمة بلخامسة"، "إيدر عائشة"، "حورية مباركي"، ثابتي يمينة"، "عقاق نورة"، على كونهن من أفضل من درّسني، وعلى تأديتهن لواجبهن بكلّ إخلاص وعلى جعلي أتعرّف على سحر الأدب، ممتنّة أنّهن رافقنني في مشواري الدّراسي، ومهما شكرتكن لن تكفي الكلمات لذلك، فأنتن قدوة أقتدي بها، إلى جانب اعتباري إياكنّ صورة سامية للنّساء القويات والنّاجحات، شكرا لكن.

ولا أنسى أن أتقدم بشكري لكلّ "موظفي مكتبة كليّة الآداب واللّغات لجامعة بجاية" على حبهم ومساعدتهم لي.

"شكرا لكلّ من جعلني أقع في حب الأدب".

زكية جاب اللّه

« لا يموت الإنسان في السجن من الجوعِ أو من الحرّ أو من البرد أو الضرب أو الأمراض أو الحشرات، لكنّه قد يموت من الانتظار، الانتظار يحوّل الزمن إلى اللازمن، والشيء إلى اللاشيء، والمعنى إلى اللامعنى »

نوال السعداوي مذكّراتي في سجن النسا

مقدّمة

تعتبر تجربة السّجن من أقسى التّجارب التي يمكن للإنسان أن يخوضها، بعدما عهد نفسه حرّا لا أغلال تقيّده، فيجرّب طعم فقدان حرّيته، ما يجعل همّه وهاجسه الوحيد استعادتها، فالسّجن يورث في نفس المعتقل الإحساس بالضّيق والوحدة والظّلم، وهذا ما دفع المعتقلين الذين عاشوا هذه التجربة إلى توثيق ما عاشوه في عتمة أقبية السجون.

عرفت البلاد العربية كغيرها من البلاد المختلفة؛ أجواءً سياسية متوتّرة، ومشاكل واضطرابات ساهمت في كثرة الاعتقالات التّعسفية التي كانت تقوم بها السّلطات والأنظمة في حقّ كلّ من يعارضها، سالبة إيّاهم حرّية التّعبير.

حملت كتابات المعتقلين تسمية **أدب السجون**، لما تنقله من تجارب فظيعة وقاسية يعيشها المعتقلون مثقّفين وغيرهم. وكانت الرّواية من أكثر الأجناس الأدبيّة التي تبناها هؤلاء لنقل ما قاسوه، ليصبح **أدب السّجون** من الأنواع الأدبيّة البارزة التي شهدت غزارة في الإنتاج الأدبي، للتّعبير عن الذّات وتحريرها بعد كلّ ممّا عاشه المعتقلون، ولنقل فظاعة السّجن والزنزانة والسّجان.

وفي هذا الاتجاه يعدّ الأديب المغربي **الطّاهر بنجلّون** واحدا من كتّاب الأدب العربيّ، الذين أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع، عندما ألّف رواية **تلك العتمة الباهرة**، التي تناول فيها موضوع السّجن، بتوثيقه لمأساة معتقلي سجن تازمامارت المغربيّ، بالاعتماد على شهادة **عزيز بنبين** أحد المعتقلين، الذين قضوا ثمانيّة عشر عاما، في جحيم تازمامارت، لتبقى ذكرى، وتاريخا يشهد على قساوة النّظام المغربي الذي لا يرحم، ويخلّد ذكرى سجن ترك آثارا في نفسيّة وأجساد من نجوا منه لا يستطيع الزمن أن يمحوها.

من هنا جاءت مذكرتنا الموسومة **بأدب السّجون في الأدب العربيّ تلك العتمة الباهرة للطّاهر بنجلّون أنموذجا**، لتلبّي رغبتنا في التعرّف على الكتابة السجنية، ولتسلّط الضّوء على أدب السّجون في

الأدب العربيّ، هذا الأدب الذي حمل في طياته صورا تفيض بالمشاعر الجيّاشة التي تلامس القلوب والجوارح في تعبير **بن جلّون** عن كلّ ما تعرّض له المعتقلون، وعاشوه من انتهاك لحقوق الإنسان في تلك الحفرة بعيدا عن أعين العامة والصّحافة.

أمّا ما دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع بالذات، فمعرفتنا السّابقة بسجن تازمامارت ومدى خطورته، بالإضافة إلى ميلنا إلى التّعرف على أنواع ومواضيع أدبيّة جديدة، والاطلاع على روايات جديدة، وقد كانت **تلك العتمة الباهرة** مشوّقة فعلا، خاصّة أنّها مستوحاة من شهادة حقيقيّة لأحد المعتقلين. أمّا السّبب العلمي الذي دفعنا لاختيار هذا الموضوع فاعتقادنا بأنّ أدب السجون موضوع خصب يحتاج إلى الإثراء، على الرغم من وجود دراسات فيه هذا من جهة، ومن أخرى فلأنّ أدب السّجون يحمل في ثناياه قضيّة الإنسان والإنسانيّة، بالإضافة إلى كونه يكشف السّتار عن الممارسات التّعسفيّة والقمع الذي تمارسه سلطات أغلب البلدان العربيّة تجاه معتقليها، فكانت الرغبة، إذ، في الكشف عن كلّ هذا.

تسعى هذه المذكّرة إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من مثل : ما أدب السجون ؟ وهل الكتابة السجنية في الأدب العربيّ حديثة أم ضاربة في القدم ؟ هل هي مقتصرة على جنس أدبيّ دون غيره أم أنّ الأجناس الأدبية المختلفة كانت لها وعاءً ؟ ما الأسباب التي أدّت إلى ظهور الكتابة السجنية، وساهمت في غزارة الإنتاج فيه ؟ وما المواضيع التي ركّز عليها **بن جلّون** في رواية **تلك العتمة الباهرة** ؟

استخدمتْ هذه الدراسة المنهج الموضوعاتي؛ إذ سعت بالدرجة الأولى إلى الوقوف على الموضوعات والتّيمات التي عالجتها مدونتنا. أمّا سبب اختيارنا هذا فاعتقادنا بأنّه المنهج الذي سيفتح لنا باب التحليل.

اعتمدَ بحثنا على دراسات سابقة في أدب السّجون أبرزها رسالة ماجستير بعنوان **دراسات تحليلية لنماذج روائيّة من أدب السّجون لشيرين محمّد حسن سليمان**، نوقشت في جامعة القدس، وقد تناولت

فيها صاحبتها عدّة نماذج روائية من أدب السجون. بالإضافة إلى مرجعين هامين آخرين أوّلهما **أدب السّجون ليوسف شعبان** وثانيهما هو **السّجون وأثرها في الآداب العربيّة من العصر الجاهلي حتّى نهاية العصر الأموي لواضح الصّمد.**

يتوزّع هذا البحث على فصلين، بالإضافة إلى مقدّمة وخاتمة وملحق. تناولنا في الفصل الأوّل النظريّ تعريف أدب السّجون، كما وقفنا فيه على مجموعة من النماذج الأدبية التي تناولت هذا الموضوع منذ العصر الجاهلي وصولا للعصر الحديث والمعاصر، كما اهتممنا بالأسباب التي كانت وراء ظهور هذا النّوع من الكتابة في الأدب العربي. أمّا في الفصل الثاني التطبيقي فخصّصناه للحديث عن الرواية والظروف التي أحاطت بظهورها، ولبعض الحديث أيضا عن انقلاب الصخيرات وسجن تازمامارت، ثمّ ركّزنا على التيمات البارزة في مدوّنتنا، وقد وجدنا أنّ التّيمة المهيمنة عليها هي تيمة السّجن، وما عداها كانت كلّها مرتبطة بهذه الموضوع الرئيسيّ. وفي الخاتمة عرضنا أهم النتائج التي توصّلنا إليها.

لا نختم هذه المقدّمة قبل الحديث عن بعض الصّعوبات التي واجهتنا أثناء إعدادنا لبحثنا هذا، ومن أهمّها نقص المراجع والدّراسات، وأغلب ما استفدنا منه كان منشورا على صفحات الإنترنيت، بالإضافة لضيق الوقت المخصّص لإنجاز هذه المذكّرة.

وأخيرا أتمنى السّداد والتّوفيق من عند اللّه، وأتوجّه بجزيل الشّكر للأستاذة المشرفة على بحثي **سُعاد أُوشايت**، التي ساعدتني طيلة فترة إنجاز هذا البحث دون أن تدّخر أيّ مجهود في ذلك، وأقدّر كذلك وقوفها بجانبي منذ أوّل يوم تواصلت معها كي تشرف عليّ، وأتمنى من اللّه أن يحفظها ويحفظ عائلتها الكريمة.

كما أشكر عضويْ لجنة المناقشة اللّذين وافقا على قراءة هذا البحث ومناقشته.

الفصل الأوّل :

أدب السجون في

الأدب العربيّ

أوّلا / تعريف أدب السّجون :

أدب[1] السّجون هو ذلك النّوع الأدبي الذّي يعبّر فيه كاتبه عن تجربة السّجن[2]، بغضّ النّظر عمّا إذا كانت تجربته أو تجربة شخص آخر، وهو أدب مشبع بالعاطفة والوجدان. وقد ذهب بعض الأدباء والنّقاد إلى أنّه « **الأدب الذّي ينجزه السّجين داخل السّجن، ويشمل الرّواية والقصّة والشّعر والمسرحيّة والزّجل وحتّى اللّوحات الفنّية المرسومة، ويستثنى من ذلك المقالات السياسية والتاريخ** »[3]، فكلّ الأنواع الأدبية وعاء صالح لنقل تجربة السجن، وكذلك ألوان الفنون المختلفة، أمّا المقالات السياسية والنصوص التاريخية فلا تصلح لذلك أبدا.

وفي ذات الاتجاه يذهب **حازم نهار**، إذ يرى أنّ أدب السجن هو إقدام من طرف المعتقلين على « **نقل تجاربهم وراء الأسوار، وتجارب غيرهم إلى الجمهور العام على هيئة أعمال أدبيّة متنوّعة**

---

[1] – يقول **عز الدين إسماعيل** معرّفا كلمة أدب : « **كلمة أدب *Literature* في الإنجليزية، و*Littérature* كذلك في الفرنسية مأخوذة من كلمة *Litera* وهي بذلك توحي بالأدب المكتوب أو المطبوع ... والملفوظ ... والأدب هو فنّ الكلمة المقروءة والكلمة المسموعة** ». عز الدّين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، ط9، دار الفكر العربي، القاهرة، 2013، ص9–10. إنّ الأدب، إذن، هو أحد أشكال التّعبير الإنساني عن المشاعر والعواطف والأفكار، بأرقى الكلمات والأساليب الكتابيّة، كما أنّه كلام ينقل للسّامع أو القارئ التجارب والعواطف والانفعالات النّفسيّة التي يشعر بها المتكلّم أو المؤلف إمّا شعرا أو نثرا.

[2] – السّجن (الأسر، أو الاعتقال، الحبس، والحجز) هو مؤسّسة عقابية مخصّصة لحبس الأفراد الذين يخالفون القانون، و« **يحرم على المحكوم عليهم الخروج أو متابعة الحياة بشكل عادي وفي أجواء طليقة، والحيلولة دون ممارسة أي نشاط ما، وعادة ما يرتبط بالسّجون عدّة مفاهيم وتسميّات مثل مراكز التأديب أو دور الإصلاح والتّهذيب أو التّقويم أو مؤسسات إعادة التّربية** »، إسحاق إبراهيم منصور، الموجز في علم الإجرام والعواقب، ط3، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1989، ص163.

[3] – شيرين محمد حسن سليمان، دراسات تحليليّة لنماذج روائيّة من أدب السّجون، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة القدس–فلسطين، 2018، ص3. وينظر كذلك : رأفت حمدونة، أدب السّجون التّعريف والمميزات، دنيا الوطن، https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2016/01/24/391920.html

الأشكال، الرّواية، القصّة، المسرحيّة، والسّيرة والشّهادة والقصيدة فكتبوا على طبيعة الحياة داخل السّجن، عن آلام الوحدة، وتجارب فقدان الحرّية المرّة، وعمّا تفعله جُدُر السّجن في أنفس القابعين في داخلها وكيف تظلّ تحبس أنفسهم حتى بعد خروجهم إلى عالم النّور »[1]، أدب السجن هو، إذن، ما ينقل تجربة السجن وكلّ ما يتّصل بها، وهو يتخذ أشكالا أدبية مختلفة (القصّة أو الرواية أو القصيدة)، ولا يهمّ هنا إن كان صاحب النصّ هو صاحب التجربة السجنية أم هو مجرّد ناقل لتجربة شخص آخر.

أمّا الرّوائي **وليد الهدّولي** فيذهب إلى أن أدب السجون هو ما يُكتب داخل المعتقلات والسجون خلال فترة السجن والأسر، وهو أيضا ما يكتبه السجين بعد فترة السجن من مذكرات، سواءً شعرا أو نثرا ويستثني الكتب والأبحاث وحتّى الدّراسات في مجالات من غير الإنتاج الأدبي، ممّا يعني أنّ كلّ ما يكتب خارج فلك الأدب لا ينتمي إلى أدب السّجون، وإن كان يدور حول موضوع السّجن والمعتقل[2].

يذهب الباحث الفلسطيني **رأفت حمدونة** عندما يتحدّث عن أدب السجون والمعتقلات الفلسطينية إلى أنّه « **الأدب الذي يتطلّع للحرّية، وهو أصدق أنواع الكتابة، سواءً كان ذلك على مستوى النّثر أو الشّعر، فذهب البعض لتسميته " بأدب الحرّية " أو " بالأدب الاعتقالي "، وحرص آخرون على صبغه بمفاهيم إيديولوجيّة فأطلقوا عليه " الأدب الأسير "، وذهب آخرون إلى تسميته " بأدب السجون " ... وأدب السجون لم يكتب في الصّالونات المكيّفة، أو في الحياة المرفّهة، أو بين الورود، والبساتين التي تصدح في سماءها الطيور المغرّدة، بل كتب في أجواء من الألم والأمل، وفي**

[1] – حازم نهار، " أدب السّجون السّوري : مساحات أدبية كفاحية وجمالية "، مجلّة رواق ميسلون، مؤسّسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ع 7-8، نوفمبر 2022، ص20.

[2] – ينظر: رأفت حمدونة، أدب السّجون التّعريف والمميزات.

ظلّ المعاناة والصبر والتأمّل داخل محرقة العدو بين الجدران ومن خلف القضبان »[1]؛ ولعل ما ذهب إليه الباحث هنا ينطبق على أدب السجون في الوطن العربيّ كلّه، وليس محصورا في الأدب الفلسطينيّ فقط، إذن ما يميّز هذا النوع من الأدب، ويجعله مختلفا عن غيره من النصوص الأدبية، هو خروجه من رحم المعاناة والألم، والأسر، وهو في هذا لا يشبه ما يكتب عندما يكون المبدع مرتاحا.

أما القاص والصّحفي **خطيب بدلة** فقد اقترح استخدام مصطلح **أدب الاستبداد** كبديل لمصطلح **أدب السّجون** لمناسبته طبيعة القصص والرّوايات والأشعار التي تكتب – وما زالت – في هذا الشّأن، وتتّجه كلّها لوصف الظّلم والاضطهاد والتّنكيل الذي تمارسه السّلطة[2].

ثانيا / أدب السّجون في الأدب العربي :

ليس السّجن ظاهرة جديدة في حياة الإنسان بل هي موغلة في القدم، وكذلك في التّاريخ العربي الذّي عُرف بكثرة المشاكل والنّزاعات والاضطرابات السّياسيّة، والاجتماعيّة، والفكريّة ... فكثُرت الاعتقالات، وتعدّدت أسبابها، ووجد المعتقل نفسه تحت وطأة التّعذيب، والظّلم، والاضطهاد والألم، فاحتاج بعضهم للتّنفيس عن المعاناة التي كانوا يعيشونها وراء القضبان، فلجأوا لنقل تجربتهم خارج أسوار السّجن عن طريق الأدب إمّا شعرًا أو نثرا.

[1] – رأفت حمدونة، أدب السّجون التّعريف والمميزات.

[2] – ينظر : خطيب بدلة، " أدب الاستبداد "، رواق ميسلون، ص151.

وفيما يلي بعض المقتطفات والأمثلة من أدب السّجون العربي[1] :

1. في العصر الجاهلي :

عُرف عن العرب في العصر الجاهلي كثرة الحلّ والترحال سعيا وراء الماء والكلأ، فكثرت اللّصوصيّة والحروب والغارات، ولكنّهم مع هذا لم يبنوا السجون، إذ منعتهم طبيعة حياتهم من ذلك، وكانوا يكتفون بحبس المجرمين والأسرى لفترة قصيرة قبل إطلاق سراحهم، ولكنّ الأمر كان مختلفا مع الإمارات التي أقيمت على حدود فارس وبلاد الروم (المناذرة والغساسة)، وفي بعض الحواضر كمكة وبلاد اليمن، حيث كانت السجون التي تستقبل المجرمين والمغضوب عليهم أيضا[2].

دخل الكثير من الشّعراء في العصر الجاهليّ إلى السجن لأسباب متعدّدة، وقد كان « **الشّاعر في سجنه يطلب السّماح والرحمة والعفو من سيّده، يمدحه ويكذّب الوشاة ويهجوهم، ويصف ليالي الأرق التي يعاني منها، والأغلال والقيود، ويطلب أحيانا الخلاص من عند الأصدقاء، أو يدركه الموت فيريحه** »[3]. وكان أدب السّجون في هذا العصر كلّه عبارة عن شعر.

---

[1] – ينظر لمزيد من الأمثلة التي لا يتسع المكان لذكرها هنا : واضح الصّمد، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط1، بيروت 1995، إذ قدّم الكاتب أمثلة كثيرة من أدب السجن في الأدب العربيّ منذ العصر الجاهليّ حتى نهاية الأمويّ. وينظر كذلك : حسن نعيسة، شعراء وراء القضبان — من الأدب السياسي، دار الحقائق للطباعة والنشر، ط1، بيروت – دمشق، 1986.

[2] – ينظر : واضح الصّمد، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة، ص15، وينظر : طارق زيناي، " ظاهرة شعر السجون وتجلّياتها في الأدب العربي القديم "، مجلّة القارئ للدراسات الأدبية واللغويّة والنقدية، جامعة الوادي، العدد 4، جوان 2020، الجزائر، ص253-254.

[3] – واضح الصّمد، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة، ص15.

أمّا أبرز الشّعراء الذين خاضوا تجربة السّجن آنذاك الفارس الشّاعر **عنترة بن شداد**، الذي خاض حربا خاسرة في محاولته الحصول على النّوق العصافيرية، التي طلبها عمّه والد لحبيبته **عبلة**، ولم يكن أحد يملكها إلاّ المناذرة، فقبض عليه وزجّ في سجن المنذر بن ماء السماء[1]، الذي اشترط عليه حتى يحرّره أن يبارز أسدا وهو مقيّد الرّجلين، فقبل عنترة، وأنشد بعد مصارعته للأسد يصف كيف قضى عليه :

قطعـــتُ وريـــده بالسّـــيف حـــزرا وعدْتُ إليـــه أحْجَـــلُ في وثاقـــي[2]

وما **عنترة بن شدّاد** إلاّ واحد من شعراء جاهليّين كثيرين ذاقوا مرارة السجن والأسر **كالأعشى**، و**طرفة بن العبد**، و**سعيد بن العاص**، و**اليشكري** ... إلخ، ووثّقوا تجربتهم هذه في أشعار عبّروا فيها عن الألم والمعاناة التي قاسوها وهم في الحبس، أو يمدحون من أسرهم كي يرفق بحالهم ويعتقهم من الأسر كما أنّ كثيرين أيضا غادروه بعد مدح واستعطاف من أمروا بسجنهم بأشعار جميلة جدّا لا يتّسع المجال لذكرها هنا[3].

2. في صدر الإسلام :

ولم يتغيّر الوضع في العصر الإسلاميّ، خاصة بعد توسّع رقعة الدّولة الإسلاميّة، فقد كانت الحاجة ماسّة إلى السّجون، التي أصبحت تستقبل الآن أيضا كلّ الذين يتجاوزون حدود الله، فتطبّق عليهم القوانين والعقوبات المستمدّة من القرآن الكريم والسّنة النّبوية.

[1] – ينظر : واضح الصّمد، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة، ص16.

[2] – ينظر : المرجع نفسه، ص16.

[3] – ينظر لمزيد من الأمثلة المرجع نفسه، ص16-22.

ولعلّ أشهر من سجن من الشعراء **الحطيئة،** الذي عُرف بهجائه اللّاذع لكلّ من حوله، فاضطر **عمر بن الخطاب** إلى سجنه، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن استعطفه بقصدته المشهورة التي مطلعها :

مـــاذا تقـــول لأفراخ بـــذي مــــرخ حمـــر• الحواصـــل لا ماء ولا شجـــر؟[1]

3. في العصر الأموي :

عرفت الخلافة الإسلاميّة في عهد بني أمية عدّة خلافات وصراعات حول السّلطة، كما أصبح الحكم وراثيا وعمل كلُّ أموي على التّنكيل بالعلويين والمعارضين لحكمهم، ومنهم شعراء تعرّضوا للاعتقال والحبس على يد الخلفاء الأمويّين **كالفرزدق**، بسبب هجائه **لخالد القسري،** الذي كتب يشكوه لرئيس شرطة البصرة **مالك بن المنذر**، فقُبض على **الفرزدق،** وأُدخل على **مالك** الذي كان يثور غضبا، ولكنّ الشاعر نجح في تهدئته بأبيات من الشعر مدحه فيها[2]، يقول **الفرزدق** :

أقـــول لنفسي حـين غصّـت بريقهـا ألا ليت شعري ما لها عنـد مـــالك؟

لـها عنـــده أن يـرجـع الله روحـــها إليـــها وتنجـــو من جميـــع المهـــال

وأنـــت ابـــن جبّـــاري ربيعة أدركـــتْ الشّـــمسُ الخـــضراء ذات الحبـــائـك[3]

• هكذا وردت عند ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص51، وفي قراءة أخرى " زغب الحواصل "، ينظر : أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق : إحسان عبّاس وإبراهيم السعّافين وبكر عبّاس، دار صادر بيروت، ط3، 2008، ج2، ص122.

[1] – ينظر : واضح الصّمد، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة، ص132-134.

[2] – ينظر : المرجع نفسه، ص140-141.

[3] – المرجع نفسه، ص141.

ولكنّ قصائد **الفرزدق** في مدح **مالك** و**القسري** في مرحلة لاحقة لم تفلح في إطلاق سراحه، وكذلك مدحه واستعطافه للخليفة **هشام بن عبد الملك**[1]، ولم يغادر السجن – الذي بقي فيه طويلا – إلاّ بعد تدخّل **سعيد بن الوليد** لصالحه عند الخليفة[2].

4. في العصر العباسي :

العصر الذّهبي هكذا أطلق على العصر العباسي، فقد سطع نجم الدّولة الإسلاميّة عاليا آنذاك في كلّ النّواحي، وتطوّر معها الجانب السّياسي عامة والمؤسّسة العقابيّة، فمع انفتاح الدّولة العباسيّة على الحضارات الأخرى، ووفود شعوب وأجناس جديدة كان لابدّ من سنّ المزيد من القوانين والضّوابط قصد تنظيم الحياة.

زُجَّ كلّ معارض لسياسة العباسيّين في السّجن، ومن بينهم شعراء خالفوا القوانين أو الآداب العامة[3] **كالحلاج**، الذي اتهم بالزّندقة والإلحاد وادّعاء الألوهيّة، فأعدم[4]. وذاق آخرون مرارة السجن **كأبي فراس الحمداني**، الذي أسره الرّوم، فأخذ يبعث بقصائد **لسيف الدّولة** ليفتديه، سمّيت قصائده بالرّوميات[5].

---

[1] – ينظر : واضح الصّمد، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة، ص147.

[2] – ينظر : المرجع نفسه ص142-148.

[3] – ينظر : حسن نعيسة، شعراء وراء القضبان، الذي يعرض عددا من الشعراء الذي عاشوا تجربة السجن منذ العصر الجاهليّ، والذين لا يتسع المجال في ذكرهم هنا.

[4] – ينظر : طه عبد الباقي سرور، الحسين بن منصور الحلاّج شهيد التصوّف الإسلاميّ (244 – 309 هـ)، مؤسّسة هنداوي، المملكة المتّحدة، 2014.

[5] – ينظر : المرجع السابق، ص139-146.

أمّا أشهر من سُجن في هذه الفترة فهو **أبو العتّاهية**، الذي رفض أن يلبّي **هارون الرّشيد**، الذي طلب منه شعرا في الغزل، بحجّة أنّه أصبح زاهدا، فأمر بضربه وزجّه وراء القضبان، ووكّل صاحب خبر أن يأتيه بكل ما يسمعه[1]، فكتب إليه بعد فترة أنّه سمعه يقول :

أمـــا واللّـــــه إنّ الظّـــلـــم لــــوم   ومـــــا زال المســـيء هــو الظّلـــوم

إلى ديّـــان يـــوم الدّيـــن نمضـــي   وعنــــد الله تجتـــمـــع الخـــــصوم[2]

وكانت هذه الأبيات سببا في إطلاق سراحه.

5. في العصر الأندلسي :

عُرف عن التّاريخ العربي كثرة المشاكل السّياسية، فلم تسلم فترة الحكم الإسلامي للأندلس من هذه النّزاعات والخلافات، « **ولأن السّياسة تمتد لتشمل كل قضايا الإنسان، وتؤثر على كل شريحة في المجتمع علاقاتها بالشّعر وبالشعراء علاقة حتميّة** »[3]، فهناك من الشعراء من عارض السلطة أو خالف القوانين فتم سجنه أمثال **ابن زيدون وهارون الرّمادي، وعبد الملك الجزيري، والمعتمد بن عباد، وأبي بكر بن الصّانع** الشّاعر الفيلسوف الذي « **اعتقله صاحب سرقسطة عماد الدّولة عبد الملك بن هود**

---

[1] – ينظر : حسن نعيسة، شعراء وراء القضبان، ص147-150.

[2] – المرجع نفسه، ص148.

[3] – عواطف بن نصر وقدورية يعقوبي، " أثر السجن والأسر في شعر رثاء الذات في العصر الأندلسيّ – نماذج مختارة – "، مجلّة الموروث، المجلّد 9، العدد 2، جامعة مستغانم، 2021، ص337.

وكان وزيره، فأمضى في الحبس عدّة شهور جعلته يشعر باحتمال بطش بن هود وقتله بين لحظة وأخرى »[1]، وقد نظم شعرا يرثي نفسه ويرد على الشّامتين به[2].

6. أدب السّجون في العصر الحديث والمعاصر :

يعيش الإنسان العربي منذ بداية العصر الحديث – ومازال – أحداثا مهمّة، وقد شهد العالم العربيّ توترا على صّعيد السّاحة السّياسيّة والاجتماعيّة وما إلى غير ذلك، إذ عرف من جهة الاحتلال والاستعمار، ومن أخرى استبداد الحكّام، ممّا عرّض الأفراد للاعتقال ولعقوبة السّجن جراء مخالفتهم للقوانين، أو لمعارضتهم للسّلطة أو المحتل، وهذا، في الحقيقة، لم يكن جديدا على السّاحة السّياسية العربية.

أمّا السّاحة الأدبيّة فقد شهدت في هذه الفترة وفود أجناس أدبيّة جديدة بفعل الاتصال الثّقافي بين العالم العربيّ والغرب، الذي حدث باحتلال **نابليون بونابرت *Napoléon Bonaparte*** لمصر سنة 1798، ومع انفتاح الأدب العربيّ على الآداب الغربية، واتصاله بها تعرّف على أجناس أدبية لم تكن معروفة فيه، كالمسرح، والقصّة القصيرة، والرّواية وغيرها، ولكنّ هذه الأنواع الأدبية الجديدة لم تستطع – على الأقلّ في البداية – أن تتزحزح الشعر عن مكانته في الأدب العربيّ إلا قليلا.

تعرّض أدباء عرب كثيرون، إذن، للحبس لأسباب مختلفة، لكن تجربة السّجن ظلّت القاسم المشترك بينهم جميعا، متميّزةً بمرارتها وصعوبتها، وقد اتجه كثير من المعتقلين إلى التعبير عن الألم، والمعاناة، والوحدة

[1] – عواطف بن نصر وقدورية يعقوبي، " أثر السجن والأسر في شعر رثاء الذات في العصر الأندلسيّ – نماذج مختارة – "، ص340.

[2] – ينظر : المرجع نفسه، ص340.

التي عاشوها خلف قضبان السّجن، وبين جدران زنازين سجّانيهم، فكانت النتيجة أدبا يفيض بالمشاعر والعواطف والأشجان التي كانت تعتريهم، وقد توزّعت إبداعاتهم على مختلف الأجناس الأدبيّة؛ بالإضافة إلى الشعر[1]، الذي لم يفقد مكانته التي كانت له منذ القديم، على الرغم من مزاحمة أجناس أدبية أخرى له منذ انفتاح الأدب العربيّ على الآداب الأجنبية، مثلما سبقت الإشارة إليه.

لم يغب موضوع السجن، إذن، عن كتابات الأدب العربيّ الحديث، فقد اتجه كثير من المعتقلين إلى تقييد تجربتهم، مستغلّين الأجناس الأدبية المختلفة[2]؛ كالمسرح الذي تعرّف عليه القارئ العربيّ بعد انفتاح الأدب العربيّ على الآداب الأجنبية، وقد كان المسرح سلاحا ذي حدّين بين أيدي المعتقلين؛ إذ كان من جهة وسيلة مقاومة داخل السجن مع الفرق المسرحية التي كان بعض السجناء ينشئونها، ومن أخرى كانت وسيلة توثيق لتجربة الاعتقال المريرة[3].

ولم تتخلّف القصّة القصيرة عن معالجة موضوع السجن، الذي تناوله كتّاب كثيرون **كعصمت منصور، إسماعيل دبج، وحسن عبد اللّه، والأديب بلقاسم عبد اللّه**، الذي كتب قصة **الزنزانة**، بالإضافة إلى **شعبان حسونة** صاحب المجموعة القصصية التي حملت عنوان **أمسية سجين**، إلى جانب **وليد الهدولي** الذي ألّف **في شباك العصافير**، وهي مجموعة قصصية حملت معاناة المعتقلين داخل المعتقل[4].

---

[1] – ينظر : حسن نعيسة، شعراء وراء القضبان، ص178.

[2] – وأشكال الكتابة الأخرى كالمذكّرات مثلا.

[3] – ينظر هنا : شعبان يوسف، أدب السجون، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 2014، صص17-20، وينظر كذلك : علاء الرشيدي، " المسرح داخل المعتقل، المسرح داخل السجن الآداب والعروض المسرحية في تمثيل الإبداع المعتقل وفي رواية السجن العقابي "، مجلّة رواق ميسلون، صص85-111. عبد الناصر حسو، متلازمة السجن والمسرح .. خارج الزمن داخل الوطن، مجلّة أوراق، https://www.syrianwa.net/. محمّد علي حسن، بالصور" مسرحيات الأسرى " .. ترجمة حركيّة لأدب السجون، https://www.elwatannews.com/

[4] – ينظر : رأفت حمدون، أدب السجون التعريف والمميّزات.

أمّا الرواية فقد حظيت بصحّة الأسد في معالجة موضوع السجن؛ ذلك أنّها الجنس الأدبيّ الي يمنح الأديب حرّية التّعبير بشكل عميق ودقيق ومطوّل عمّا يختلجه من مشاعر وأحاسيس، ولأن « **الفن الرّوائي ... هو أكثر الأنواع الأدبيّة نزوعًا للحرية ... لتصير مرونة الرّواية هي المنبع الذي يؤمن للأديب تلك الحريّة الضّروريّة له إذا أراد أن يصوّر حياة البشر تصويرا كاملا** »[1]، ممّا مكّن كثيرا من أدباء الوطن العرب – الرجال والنساء على حدٍّ سواء – الذين تعرضوا للاعتقال والأسر من إنتاج روائع أدبيّة روائيّة ولدت من رحم معاناتهم وراء جدران زنازينهم وقسوة سجانيهم، بغض النظر عن أسباب دخولهم للسجن، إلّا أن أغلب هذه الأسباب سياسيّة، فلا يخفى على أحد أن البلدان العربيّة تعاني منذ القديم من مثل هذه الأزمات والمشاكل سواءً داخليا أو خارجيا، ونشير هنا على سبيل المثال لا الحصر إلى أعمال الكاتب الأردنيّ **أيمن عتوم**، والسعوديّ **عبد الرحمن منيف** أشهر من ألّف في هذا الموضوع.

ويعد الأدب الفلسطينيّ من أغنى الآداب العربية إنتاجا في أدب السجون نظرا للاحتلال الإسرائيليّ لفلسطين[2]. ولا يخلو الأدب الجزائريّ من الرواية السجنية، فقد ألّف الرّوائي **سمير قسيمي** سنة 2009 رواية **تصريح بضياع**، التي تدور أحداثها في سجن الحراش، وفي عام 2018 صدرت رواية **سيغون ستارغو لمحمد بن زخروفة**، التي اتخذت موضوعا لها سجنَ سيغون بولاية مستغانم، أين كان يُحبس ويُعذّب الجزائريون من طرف سجّاني فرنسا إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر، للكاتب، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلا الروائيَّين لم يسبق لهما أن دخلا السجن.

[1] – شعبان يوسف، أدب السجون، ص37.

[2] – ينظر : المرجع نفسه، صص11-22.

أمّا في المغرب فقصة أخرى، ذلك أنّ أدب السجون ارتبط بسجن **تزمامارت**، الذي كان عقابا عسيرا وهاجسا للمعتقلين الذين دخلوه، فقلّة قليلة منهم استطاعوا أن ينجوا من عتمته وقسوته، ليقصوا حكاية نجاتهم من براثين أقسى السّجون في العالم، كالروائي **أحمد المرزوقي** الذي دخل السجن بسبب مشاركته في انقلاب الصخيرات[1] عام 1971، حيث قضى ثمانية عشر عامًا، ليوثّق تجربته سنة 2001 في رواية **تزممارت الزنزانة 10** ***Tazmamart cellule 10*** . وكذلك فعلت الرّوائية **مليكة أوفقير** حين أصدرت روايتها **السّجينة**، التي وثّقت فيها قصة عائلتها التي سجنت بسبب مشاركة والدها العقيد **محمد أوفقير** في انقلاب الصخيرات.

أما أشهر رواية في أدب السّجون المغربي فهي رواية **تلك العتمة الباهرة للطاهر بنجلون** موضوع بحثنا.

وأخيرا يمكن القول أنّ أدب السّجون والمعتقلات أصبح أكثر حضورا في الأدب العربي نظرا لما عاشته ومازالت تعيشه البلدان العربية من مشاكل وأزمات، خاصة السّياسيّة منها، مما أدى إلى كثرة الاعتقالات. وقد دعت قسوة السجون إلى توثيق ما عاشه السجناء[2] شخصيّا، أو ما عاشه غيرهم، وتوزّعت شهاداتهم هذه على الأجناس الأدبية المختلفة كالقصة القصيرة، والشّعر، والمذكرات، والرّسائل، والمسرح. أمّا الجنس

[1] – حدث انقلاب الصخيرات سنة 1971 أثناء حكم الملك **الحسن الثاني**، وهو انقلاب فاشل حضّر له مجموعة من الضباط. ينظر لمعلومات أكثر، وتفاصيل أدق : شهادة أحمد المرزوقي التي أدلى بها على امتداد حوالي 20 حلقة في برنامج شاهد على العصر الذي بثّ على قناة الجزيرة ابتداءً من شهر فيفري 2009، وقد حاوره أحمد منصور، *https://www.youtube.com/@aljazeera* . كذلك ينظر : سلوان رشيد رمضان وأحمد عبد السلام فاضل، " قراءة في انقلاب الصخيرات بالمغرب عام 1971 "، مجلة الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 6، جامعة الواد، الجزائر، 2015، صص 155-172.

[2] – لا داعي للتذكير هنا بأنّ من نزلاء هذه السجون كان المثقّفون والأدباء، وبأنّ معاناة السجن خلقت أدباء ومبدعين.

الأدبيّ الأكثر استخداما فهو الرّواية، لأنّها تمنح الأديب الحرية في التعبير أكثر من أيّ نوع أدبيّ آخر، فأثمرت الساحة الأدبية العربية روايات كثيرة في أدب السّجون، عبّر من خلالها الأدباء عن مأساة ومعاناة المعتقلين.

ثالثا / أسباب وظروف ظهور أدب السّجون في الوطن العربي عامة والمغرب خاصّة :

« **لا شكّ أن تجربة السجن السياسيّ تجربة إنسانية بالغة الرهافة والخصوصية. تجترح الذات، وتحفر عميقا في ثنايا الروح ما لا يُنسى بما تثيره من أسئلة، أو تشي به من دلالات، أو تحتمي به من قِناعات. وليس السجن السياسيّ إلاّ مظهرا من مظاهر غياب الديموقراطية، واستشراء ظاهرة القمع السلطويّ القاهرة، الذي يصادر جرّية المرء، ويمتهن كرامته، ويضيّق عليه الخناق** »[1]، ومن هنا كان السّبب الرّئيسي لظهور أدب السّجون هو إحساس السّجين أو الأديب المعتقل بفقدانه لأبسط متطلباته، وبأنّ حريته سلبت منه، وكذلك حاجته للتّنفيس عن معاناته وشعوره بالضّياع، والظّلم، والخيبة، والوحدة ... خاصّة إذا كان يتعرّض للتّعذيب النّفسي أو الجسدي، ممّا يدفعه إلى التّعبير عمّا يختزنه بداخله من أحاسيس ومشاعر، وهنا نجد أنّ الحالة النّفسيّة للأديب (أو المعتقل) تمثّل دورا مهمًّا في ظهور كتابات السّجن لأنّه يحسُّ بضرورة نقل تجربته إلى غيره خارج جدران المعتقل.

[1] – نادية بلكريش، " الزمن النفسيّ في الرواية السجنية العربيّة – رواية " تلك العتمة الباهرة " للطاهر بن جلون أنموذجا "، مجلّة رواق ميسلون، ص 64-65.

ظهر أدب السجون في الثقافات المختلفة كنتيجة حتمية للاعتقال والاضطهاد والظلم والسجن عبر التاريخ[1]، أمّا في الوطن العربيّ فقد بدأ يظهر بكثافة في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، عقب حركات التحرّر من الاستعمار، و« **من ثمّ شهدت المنطقة غزارة في الأعمال الأدبية التي تتناول عالم السجن وتجارب المعتقلين بحكم هيمنة أنظمة سلطوية تحكم قبضتها على رقاب المواطنين جميعهم. وهكذا، يمكن النظر إلى أدب السجون في المنطقة العربية، في هذا السياق، بوصفه انعكاسا لأزمة الديموقراطية، فهو يظهر عموما في بيئة قمعية استبدادية، لنكون أمام نوع من الكتابة الخصبة والمؤثّرة والعاطفية، تتناول موضوعات السياسة والاعتقال والسجن والأدب والتوثيق وعلم النفس والعواطف الإنسانية وحقوق الإنسان وغيرها** »[2]، إنّ أدب السجن، إذن، هو نوع من ردّ الفعل الحتميّ على ما عاناه المعتقلون من جهة، ومن أخرى على الظّروف السّياسيّة التي عرفتها أغلب البلدان العربيّة، إذ تميّزت أنظمة الحكم بالديكتاتوريّة في تعاملاتها وفي طريقة حكمها لشعوبها، وهي تعْمَدُ إلى التعامل بأسلوب التّعسف مع كلّ من يعارضها، وتزجّ بهم في غياهب السّجون، التي تمتلئ عن آخرها بسجناء الرّأي والمعارضين السّياسيّين[3].

ولعلّ الوضع اليوم في العالم العربيّ لا يختلف كثيرا عمّا كان عليه بُعيد تحرّره من الاستعمار، ولهذا السبب نجد كاتبا **كعبد الرحمن منيف** يعود مرّة أخرى في رواية **الآن هنا أو شرق المتوسّط مرّة أخرى**

[1] – يعتبر كتاب **عزاء الفلسفة** ***De consolatione philosophiae*** للفيلسوف الإيطالي **أنكيوس بوئثيوس** ***Anicius Boethius*** (480 - 524) من أوّل المؤلفات وأمّهات الكتب في أدب السّجون، لأن كاتبه ألفه في منفاه بالسّجن أين كان ينتظر تنفيذ حكم الإعدام.

[2] – حازم نهار، أدب السجون السوريّ، ص 18.

[3] – لا تتوانى هذه الأنظمة عن اعتقال الأدباء والمثقّفين، وهي تصادر وتوقف نشر أعمالهم التي تمسّ بمصالحها، أو تندد بأعمالها وأفعالها، كما حدث مؤخرا مع الرّوائي التّونسي **كمال الرّياحي**، الذي تم حجز وإيقاف بيع كتابه الجديد **فرنكنشتاين تونس** في تونس، من دون اعتقاله الكاتب، ولعلّ عدم تواجده بتونس هو ما منع عنه الاعتقال.

(1991)، إلى نفس الموضوع (السجن السياسي) الذي تناوله في رواية **شرق المتوسط** (1975)، وهو يشير في مقدّمة طبعة جديدة لها إلى أنّ « **الضرورة تقتضي العودة إلى هذا العالم الكئيب القاسي ... لأن عار السجن السياسي أكبر عار عربيّ معاصر، لأنه لا يمكن أن يواجِه الهزيمة العسكرية، وحتى الهزيمة السياسية، إلّا مواطنٌ حرٌّ، يعرف معنى الوطن، ويعرف كيف يدافع عنه. وما دام هناك سجن سياسيّ فسيبقى المواطنُ مقيّدًا، وبعضَ الأحيان غير معنيٍّ، لأن الحرية والوطن شيء واحد** »[1].

من الدوافع إذن إلى الكتابة السجنية :

الرغبة في التوثيق والتسجيل .. والسجناء هنا ينقسمون إلى قسمين؛ فمنهم من يوثّق تجربته وهو داخل السجن، لتغدو الكتابة متنفّسا وملجأً من رتابة السجن وقسوته، وطوق نجاة ووسيلة للتشبّث بالحياة، واتقاء للجنون، وحفاظا على التوازن النفسيّ .. إنّه وسيلة للمقاومة[2]، حتى أنّ كثيرا من السجناء من تفجّرت موهبته أثناء تواجده في المعتقل **كأحمد المرزوقي** مثلا صاحب **تازمامارت الزنزانة 10**، الذي كان ضابطا في الجيش مثلما سبقت الإشارة، ومنهم من يوثّق تجربته بعد مغادرة السجن، وهنا أيضا قسمان؛ فمنهم من يفعل ذلك بنفسه، ومنهم من يحتاج إلى شخص آخر يكتب بدلا عنه، كما هو الحال مع **عزيز بنبين** و**الطاهر بنجلون**، في إشارة إلى أنّ هناك من الروائيّين والأدباء من كتب عن تجربة السجن من دون أن يعيشها مثل **الطاهر بنجلون** ورواية **تلك العتمة**[3]، أو **سمير قسيمي** ورواية **تصريح بضياع** التي سبقت الإشارة إليها.

---

[1] – عبد الرحمن منيف، شرق المتوسّط، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – دار التنوير للطباعة والنشر، ط 19، لبنان، 2016، ص14.

[2] – ينظر : حازم نهار، أدب السجون السوريّ، ص 18 – 19.

[3] – « **أنا لا أكتب تحت الطلب، والمرة الوحيدة التي كتبت تحت الطلب كانت في ما يخص كتابي الأخير عن سجن تازمامارت وذلك بطلب من صديق لي، وهي ولو كانت كتابة بطلب فقد كتبت بكيفية روائية وليست**

ولعلّ بطء مرور الوقت أكبر عدو للسّجين أو الأديب وهو بداخل زنزانته، ويسبّب الملل، والإحباط، والفراغ والضّياع، ممّا يدفعه إلى محاولة ملء هذا الفراغ بالاهتمامات الثّقافيّة[1]، والأدبيّة كالكتابة كنوع من المقاومة، وكسر للرّوتين السّائد داخل السّجن كما ذكرنا أعلاه. وقد أشار في هذا السياق **رأفت حمدونة** إلى أنّ ما ساهم في انتشار الكتابة السجنية في الأدب الفلسطينيّ مثلا هو دخول الكتب الأدبيّة إلى السّجون أوّلا، ثمّ سماح الإدارة بإدخال التّلفاز ثانيا، ممّا أتاح للسّجناء الاطّلاع على ما يدور في الخارج، دون إغفال دور المجلات والجرائد ودور النّشر التي اهتمّت بنشر أعمال هؤلاء المعتقلين، خاصّة المهرّبة منها بطرق مختلفة، ولعلّ أفضل مثال على ذلك تهريب الأديب **شعبان حسونة** لكتاباته خارج السّجن ليتم نشرها بعدها عن طريق كبسولات[2].

كذلك نجد من أسباب ظهور أدب السجون الرغبةُ في توثيق انتهاكات حقوق الإنسان، ليصبح وسيلة تساعد السجين على عدم نسيان ما عاناه في المعتقل، خاصّة أنّ الأنظمة تنكر في كثير من الأحيان وجود سجون بعينها[3] شيّدت لاستقبال المغضوب عليهم، والذين تريد أن تجعل منهم منسيّين، وأمواتا وهم بعد على قيد الحياة، فناهيك عن توثيق ما يحدث في هذه السجون والمعتقلات من مظالم وتجاوزات وانتهاكات خطيرة؛ ففي المغرب مثلا سارع النظام الملكيّ إلى دكّ تازمامارت بعد مغادرة السجناء، بعد أن نفى وجود من قبل[4].

وثائقية »، من حوار أجرته **سعيدة شريف** مع الروائيّ في الرباط لجريدة الشرق الأوسط في 29 يونيو 2003 العدد 8979 *./https://archive.aawsat.com*

[1] – ينظر : رأفت حمدونة، أدب السجون الخصائص والمميّزات.

[2] – ينظر : المرجع نفسه.

[3] – سبقت الإشارة إلى تزمامارت المغربي مثلا، وهناك تدمر في سوريا، وأبو زعبل في مصر ...

[4] – *Voir : '' Annexe : Le Maroc '', cultures et conflits,[en ligne], 13-14, printemps-été, 1994, http:// Journals.openedition.org/conflits/191 ; DOI.*

لابد من الإشارة هنا إلى أنّ انتهاك حقوق الإنسان ليس حكرا على بلدان دون غيرها، أو على أنظمة دون سواها، فكثير من البلاد عرفت الاستبداد والظلم، وعاش مثقّفوها تجربة الاعتقال السياسي، وانتهكت حقوق الإنسان فيها انتهاكات خطيرة « **إذ تكون ذات طابع منهجي وممتد في الزمن، تطبعها ظواهر متعددة منها الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي والتعذيب والإعدام خارج نطاق القانون** »[1]، وقد ذهبت بعض الدول إلى معالجة هذه المراحل السوداء وغير المشرّفة من تاريخها، وهكذا فعل النظام الملكيّ في المغرب بعد وفاة **الحسن الثاني** (1999)، عندما أنشأ سنة 2004 " هيئة الحقيقة والإنصاف " التي تكفّلت بمعالجة ملفّات ضحايا ما سمّي بسنوات الجمر والرصاص[2]، وجمع شهاداتهم، وقد أوصت هذه الهيئة بالتعويضات المالية لأغلب الضحايا[3]، علما أنّ جهود عائلات المعتقلين، والضحايا أنفسهم، والهيئات الحقوقية ... كانت قد ساهمت كلّها في توثيق شهادات الضحايا، ونشرها والترويج لها، قبل أن يفرج عنهم[4]، « **وتشتمل هذه الكتابات على حوارات منشورة في الصحافة ابتداء من الثمانينيات وشهادات في**

---

[1] – حسن الأشرف، أين أصبحت ظاهرة " أدب السجن " في المغرب، *Independent* عربية، *https://www.independentarabia.com*

[2] – تمتدّ سنوات الجمر والرصاص من منتصف ستينيات القرن الماضي حتى نهايته ينظر : نادية بلكريش، " الزمن النفسي في الرواية السجنية العربيّة "، هامش ص 64. وقد شهد المغرب في عهد **الحسن الثاني** عدّة انقلابات عسكريّة أخرى فاشلة، وأزمات سياسية وصراعا محتدما بين اليسار الراديكالي الاشتراكي والنّظام المغربي، ممّا أدّى إلى كثرة الاعتقالات، ومن ثمّ إلى لجوء الكثير من هؤلاء المعتقلين لسرد تفاصيل سجنهم واعتقالهم، وما تعرّضوا له من ظلم داخل أسوار سجون الملوك المغاربة. ينظر : حسن الأشرف، أين أصبحت ظاهرة "أدب السّجن" في المغرب؟

[3] – أليس الحديث في مثل هذه الأوضاع عن التعويضات المالية أمرا مبتذلا قياسا بما مرّ به المعتقلون من تعذيب جسديّ ونفسيّ، وبالنسبة كذلك للأسر التي فقدت أبناءها نتيجة لوحشية التعذيب ؟ !

[4] – بل إنّ تضافر هذه الجهود في بعض الحالات كان سببا في الإفراج عن معتقلين أنكرتهم الأنظمة التي سجنتهم كما هو الحال مع منسيّي تازمامارت.

شكل سردي ونصوص أدبية وسير ذاتية أو توثيق لرسائل متبادلة من السجن وإليه، أو روايات تخييلية تم عرضها لاحقاً في أشرطة سينمائية أو في شكل مسرحيات »[1].

وهكذا تغدو كتابات السجناء، بغض النظر عن شكلها شهادات أو مذكرات أو قصص أو روايات ... الوسيلة الوحيدة لوصف معاناتهم، وإعلام الرأي العام الوطني أو الدولي بما يحدث في المعتقلات، وتتستّر عليه الأنظمة، وهكذا وصف هؤلاء المعتقلون السجن والحياة فيه، وقصّوا الوحدة والمعاناة، والتعذيب والإهانة، وحكوا عن السجانين ووحشيتهم، كما ذكروا كيف أنّ السجن أصبح جزءا من ذواتهم حتى بعد أن غادروه ... [2]. هذا بالإضافة إلى أنّ كتابات السجن تعدّ أيضا وسيلة نجاة[3].

[1] – حسن الأشرف، " أين أصبحت ظاهرة " أدب السجن " في المغرب ".

[2] – محمّد بوعيطة، " اشتغال الذاكرة في الرواية السجنية – سرديات عبد القادر الشاوي أنموذجا "، مجلّة رواق ميسلون، ص 49-50 صص 49 -63.

[3] – تسريبات تازمامارت التي سبقت الإشارة إليها.

الفصل الثاني :

تجربة السجن في تلك العتمة الباهرة

أوّلا / حول رواية تلك العتمة الباهرة :

صدرت روايتنا سنة 2001 بعنوان ***Cette aveuglante absence de lumière***، وهي مستلهمة من شهادة **عزيز بنبين** أحد معتقلي سجن **تازمامارت** المثير للجدل[1]. ترجمت إلى لغات كثيرة منها العربيّة سنة 2002 (**بسام حجار**)، والإنجليزية سنة 2004 (**ليندة كوفردال** ***Linda Coverdale***)، وقد نالت النسخة الإنجليزية ***This Blinding Absence of light*** سنة 2004 جائزة ***International IMPAC Dublin Literary Award***.

تنتمي روايتنا، إذن، إلى الأدب المغاربي المكتوب باللّغة الفرنسيّة، الذي كان وسيلة مقاومة، وتعبيرا عن الاضطهاد والعنف والظلم، الذي عانت منه الشعوب المستعمَرة، ولم يتخلّ كثير من كتّاب الأدب المغاربي بعد استقلال بلادهم عن اللغة الفرنسية، وظلّوا يعبرون بها عند معالجة القضايا والمواضيع والأوضاع التي تعيشها البلدان المغاربيّة.

تروي **تلك العتمة الباهرة** بعضا من الأحداث التّاريخية التي شهدها المغرب في سبعينيات القرن الماضي، وتصفت انقلاب الصخيرات، الذي قاده في 10 جويلية 1971 كلّ من الكولونيل **أوعبابو** والجنرال **أوفقير** وغيرهما على الملك **الحسن الثّاني**. لقد فشل هذا الانقلاب، وأُعدم الجنرالات الذين خطّطوا له، وزجّ كلّ الضّباط الذين شاركوا فيه في سجن تازمامارت، الذي يعتبر من أقسى سجون المغرب، وأكثرها سرّية[2].

[1] – وهي لهذا تنتمي، مثلما سبقت الإشارة إليه، إلى أدب السّجون.

[2] – وربّما كان من أقسى وأبشع سجون العالم أيضا.

تجمع شهادات كلّ الضباط الذين شاركوا في هذا الانقلاب على عدم معرفتهم بحقيقة سبب توجّههم إلى قصر الصخيرات إقامة الملك الصيفية؛ يقول **بنبين** « **ويجدر بي أن أتوقّف ههنا لأوضّح أمرا أساسيّا، أختلف فيه عن رفاقي، وهو المتعلّق بمكان العملية. فأمّا أنا فقد سمعت من فاه [العقيد أعبابو] بكلمة " قصر ". وأمّا هم فمنهم من زعم أنّه سمع " مكان المناورات ". وكان هنالك آخرون يقرّون بسماعهم كلمة " قصر "، لكن يزيدون إليها توضيحا أنّ " الملك كان في خطر " ! فأنّى لنا أن نمسك، لا بالحقيقة بل بالواقع ؟ فالزمن والأحداث كثيرا ما يبدّلان من ذكرياتنا عن الوقائع والأحداث. ثمّ اشتغلت آلة القدر؛ ولسوف تسحق كلّ المشاركين في تلك المأساة؛ فلا يُفلت منها واحد بسلام** »[1]؛ هكذا، إذن، ظنّ بعض الضّباط أنّهم يساقون إلى قاعدة التّدريب العسكريّة في بنسليمان على بعد كيلومترات من قصر الصخيرات، بينما اعتقد البعض الآخر أنّهم متوجّهون إلى قصر الملك لحمايته، بعد أن تمّ إعلامهم بأنّه في خطر، إلا أنّ الجميع كان متّفقا حول نقطة واحدة وهي أنّهم لم يكونوا على علم بأنّهم يشاركون حينها في عمليّة انقلاب على **الحسن الثاني**.

حملت رواية **تلك العتمة الباهرة**، إذن، في طياتها وبين صفحاتها شهادة أحد النّاجين من جحيم تازمامارت الذي قضى فيه 18 عاما، وكان عذابه ومكوثه في السجن سيستمر أكثر لولا ضغط المنظّمات الإنسانية الدولية. لقد كان سجن تازمامارت محاطا بسرّية تامّة، ولم يكن النظام المغربيّ يعترف بوجوده؛ ففي نوفمبر 1990 أثارت **لجنة الأمم المتّحدة لحقوق الإنسان *Comité des droits de l'Homme aux nation unies*** قضيّته – تازمامارت –، فردّ ممثّلو المغرب في الأمم المتحدة بأنّ اسم تازمامارت لا يردُ في أيّ من القوائم التي تحصي سجون المغرب الرسمية. وفي شهر جويلية من عام 1991 أنكر **الحسن**

[1] – عزيز بنبين، تازماموت، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، الرباط، 2011، ص17-18.

الثّاني وجوده، مشيرا في مقابلة أجريت معه، وبشكل رسميّ، بأنّ تازمامارت لا وجود له إلّا في مخيلة ذوي النوايا السيّئة[1]، ولكنّه يتراجع أشهرا بعد ذلك (1992)، ويعترف بوجود المعتقل، ويصرّح – بعد الإفراج عن المعتقلين طبعا – لجريدة *Libération* قائلا : « ***Il s'agissait d'un lieu où ont été gardées des personnes qui y ont été administrativement assignées. Il n'a plus de raison d'être, ce chapitre est clos. Il y a eu. Il n y a plus. C'est tout***[2] » .. لقد كان الأمر في غاية البساطة بالنسبة للملك؛ فسجن تازمامارت شيّد بشكل خاص حتى يستقبل انقلابيّ الصخيرات، وعندما غادره هؤلاء لم يعد هناك حاجة لوجوده، فهدم وردم حتى يدفن ما حدث فيه تحت أنقاضه.

ولكنّ قصة تازمامارت لم تنته هنا، فقد ظلّ محفورة في ذاكرة كلّ من سُجن فيه، أمثال **عزيز بنبين**، الذي قرّر أن يروي قصّة معاناته ومعاناة زملائه[3]، وعذابهم في سجنهم وزنزاناتهم التي تشبه القبور أو الخنادق.

أمّا ما دفع **عزيز بنبين** إلى نقل تجربة السجن التي عاشها، والإدلاء بكلّ ما عاشه هو وغيره من المعتقلين، هو إحساسه بضرورة نقل تلك الأحداث والألم والظّلم الذي طالهم من طرف السّلطات المغربية وسجاني تازمامارت .. بل والقدر نفسه، فروى قصة نجاته وتغلّبه على طيف الموت الذّي كان يتربص به، واسترجاعه لحرّيته وما قاساه بين جدران معتقله، يقول **سليم** بطل الرّواية : « **ذات يوم مقبل سوف أكون بلا حقد، سوف أمتلك حرّيتي، أخيرا، وسوف أروي ما قاسيت، سوف أكتب ما قاسيت، أو أجعل أحدا يكتبه، ليس لغرض الانتقام، بل لكي أبلّغ، لكي أدلي بدلوي في ملف قصّتنا** »[4]، وفي هذا دليل

---

[1] – *Voir :* '' *Annexe : Le Maroc* ''.

[2] – *Ibid.*

[3] – لا يكتفي **بنبين** بنقل قصّة الأحياء، بل ينقل قصّة أولائك الذين ماتوا في السجن.

[4] – الطاهر بن جلّون، تلك العتمة الباهرة، ترجمة بسّام حجّار، دار الساقي، ط1، لبنان، 2005، ص56.

على أنّ رواية ما حدث في تازمامارت لن تكون بدافع الانتقام أو الغل والحقد بل فقط لينقل الحكاية كما عاشها أصحابها .. بدافع الشهادة ليس إلاّ.

أثارت رواية **تلك العتمة الباهرة** جدلا في السّاحة الأدبيّة المغربيّة عند صدورها، رغم فوزها بعدّة جوائز، فقد اتّهم البعض **الطّاهر بنجلّون** بأنّه تناول موضوع تزمامارت ونزلائه لأجل الشّهرة فحسب، وإلاّ فلماذا صمت كل هذه السّنوات، ولم يحرك ساكنا أمام كل التّجاوزات والجرائم والاعتقالات التّعسفيّة التي طالت كثيرا من المغاربة ؟ لماذا لم ينبس ببنت شفة سنوات السّبعينات والثّمانينات ؟ ومن بين منتقديه السّجين السّابق **أحمد المرزوقي**[1]، الذي اتّهمه بأنّه يسعى وراء إرضاء ذائقة القرّاء الغربيّين، إذْ قال : « ... **إن الطاهر بن جلّون يسعى دائماً للكتابة على أريكة مريحة، فهو كاتب خمائليّ يكتب بعيدا عن منغّصات السلطة، وإن كان لا يكتب تحت أوامرها طبعا لكنّه في المقابل يكتب وفق موضة الاهتمامات الغربيّة وتحت تأثير المواضيع الحارة التي يضعها الإعلام الأوروبيّ في واجهة اهتماماته** .. »[2].

ردّ **الطاهر بنجلّون** على منتقديه، وبرّر سبب صمته طوال سنوات بأنّ له عائلة في المغرب وأقارب يريد أن يستمر في لقائهم والتّواصل معهم، فخوفه من أن يفقد حقّه في دخول الأراضي المغربيّة حال بينه وبين الكتابة عن مآسي السّجناء والمعتقلين والمظلومين سنوات السّبعينات والثمانينات، عندما كانت قبضة **الحسن الثّاني** محكمة على المغرب.

[1] – لقد سبقت الإشارة إلى **أحمد المرزوقي** وروايته **تزمامارت**.

[2] – سالمه الموشي، " انتزاع الحكاية من ألم الضحيّة من سجن تازمامارت إلى كلّ الدنيا ... !! "، يوميّة إيلاف الإلكترونية، جوان 2004، *https://elaph.com/Web/Archive/1087926835110428800.htm*

ثانيا / تيمات الرّواية :

كل الأعمال الأدبيّة تحمل مواضيع وقضايا تعالجها، بما فيها جنس الرّواية، ولا تشذّ رواية **تلك العتمة الباهرة** عن هذا، ذلك أنّ الموضوع المهيمن فيها هو موضوع السّجن كونها تنتمي إلى أدب السّجون، وتمعن في وصفه، إلى جانب عدّة مواضيع أخرى متّصلة ببعضها البعض، لتروي أحداث الانقلاب وما بعده، وما تكبّده المعتقلون خلف أسوار السّجن، وما تعرّضوا له من مشقّة وآلام، وظلم، وتعذيب، خاصّة الشّخصية الرّئيسيّة **سليم**.

أمّا المواضيع والتيمات التي ركز عليها **بنجلون** في روايته فكثيرة ومتعدّدة نعرض هنا ما رأيناه مهمّا :

1. فضاء السّجن :

تتميّز روايات أدب السّجن بوصف فضاء السّجن، فهو ذلك المكان الذي يخضع فيه الإنسان للذّل وفقدان الحرّية والتّعذيب على يد السّجان، إنّه يشّكل « **عالما مفارقا لعالم الحرّية خارج الأسوار ... ونقطة انتقال من الخارج إلى الدّاخل، ومن العالم إلى الذّات بالنّسبة للنّزيل بما يتضمنه ذلك الانتقال من تحوّل في القيم والعادات والتقاليد وإثقال لكاهله بالإلزامات والمحظورات، فما تطأ أقدام النزيل عتبة السجن مخلّفا وراءه عالم الحرية حتّى تبدأ سلسلة العذابات لن تنتهي إلّا بالإفراج عنه ... وأحيانا فإنّ آثارها تظل ملازمة له لمدّة طويلة** »[1].

[1] – حسن بحراوي، بنية الشكل الروائيّ (الفضاء – الزمن – الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت – الدار البيضاء، 1990، ص 55.

يقول بطل الرواية متحدّثا عن سجن تازمامارت « **كان جناحنا محاطا بسور حصين يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار على الأقل. وثمّة أمر مؤكد : أنّنا لم نكن على مقربة من البحر. حول المعسكر جبال رمادية قاحلة ليس فيها غصن شجرة واحد. ثكنة عسكرية تتراءى من بعيد. العدم، الخواء. كان سجننا نصفه تحت الأرض** »[1].

إنّه وصف للمكان الجغرافي الذي يقع فيه هذا السّجن، ورسم لحدوده وما يحيط به، ويبدو واضحا بأنّ **سليم** – بطل الرواية – لا يعرف المكان الذّي يقع فيه السجن بالضّبط، إلّا أنّه كان متأكدا من أنّه يقع في صحراء أقل ما يقال عنها أنّها قاحلة. وهو يعلم كذلك أنّ نصف السجن مطمور تحت الأرض ممّا يجعله شبيها بالحفرة؛ يقول : « **بعد أن أمضينا سنة في تلك الحفرة** »[2]، لاشتراكهما في العمق والتجويف، ولأنّهما يقعان في جوف الأرض.

لقد ظلّ تازمامارت قابعا في تلك الصحراء القاحلة لعقدين من الزمن، قبل أن يُردمه ويُهدم، وهذا ما يتّضح جليا في هذا المقطع : « **أرى فكّين معدنيّين معلقين برافعة هائلة، ثم جرافات لكي يهدّم كلّ شيء . فلا يعود المعتقل موجودا، ولا السجن، تجعل مباني المعتقل سويّة الأرض، تهدم الجدران، تحيل الحجارة ترابا ورملا. تنطلق تلك الماكينات المتهالكة في كلّ اتجاه، تسحق كلّ بنيان ... لمحو أثر الفظاعة** »[3]؛ فقد أراد النظام الملكيّ بردم تازمامارت، وتحويل مكانه إلى واحة نخيل، أن يمحو عذاب وآلام ثمانية عشر سنة من الفظاعة في عتمة زنازينه .. ولكن هيهيات .. سيظل السجن وما حدث فيه محفورا في ذاكرة كل من نجوا منه.

[1] – الرواية، ص18.

[2] – المصدر نفسه، ص19.

[3] – المصدر نفسه، ص208.

2. فضاء الزّنزانة :

إنْ حملت الرّواية وصفا لفضاء السّجن من النّاحية الخارجيّة، فقد حملت كذلك وصفا للزنزانة التي تعتبر من الأجزاء الدّاخلية للسّجن، وتعمل على تقليص وتحديد مجال حركة السّجين، لما تتّصف به من ضيق ومحدودية في المكان، وليس غريبا، والحال هذه، أن تشبّه الروايةُ الزنزانةَ بالقبر، فهي واسعة بقدر ما تسمح بالتحرّك خطوات قليلة جدّا، وقد كانت الزنزانة تطبق على ساكنها كما القبر؛ يقول **سليم** : « **كانت زنزانتي تضيق، تتقارب جدرانها، وسقفها ينخفض** »[1]، ممّا يجعل البطل يسهب في تشبيهها بالقبر، وهذا ما يظهر في قوله : « **كانت زنزانتي قبرا؛ لجّةً تبتلع الجسد رويدا** »[2]، وفي مكان آخر : « ... **زنزانة على هيئة قبر وضع على عجلات ويجرّه قائد ثمل** »[3]، لأنّ السّجين في مكانه ذاك يشعر بأنّه ميّت بفقدانه لحرّيته وحياته أولا، ولأنّه أصبح من المنسيّين في تلك البقعة المعتمة ثانيا. ويشبّه في أحيان أخرى الزنزانة بالحفرة؛ يقول : « **الحفرة مجدّدا. العتمة حالكة. حتّى فتحة السّقف جُعلت بحيث يدخل منها الهواء من دون أن نبصر** »[4]، وهذان التّشبيهان يدّلان على تشابه الحفرة والقبر في كونهما سردابين مطمورين تحت التراب، ولأنّ القبر والزنزانة مرتبطان بالموت فالأوّل يدخله إنسانٌ توقّف قلبه عن الخفقان، والثّانية لفقدانه حرّيته، وما أشبه فقدان الحرّية بالموت.

تشبه زنزانات تزمامارت القبور في طريقة بنائها، فقد صمّمت كي تتمادى في تعذيب السّجناء، وإعطائهم كلّ يوم جرعات مخفّفة وبطيئة من الموت؛ « **كان القبر زنزانة يبلغ طولها ثلاثة أمتار وعرضها**

[1] – الرواية، ص131.

[2] – المصدر نفسه، ص28.

[3] – المصدر نفسه، ص192.

[4] – المصدر نفسه، ص38.

مترا ونصف متر؛ أمّا سقفها فوطيءٌ جداً يتراوح ارتفاعه بين مئة وخمسين سنتمترا. ولم يكن بإمكاني أنْ أقف فيها. حفرة للتبوّل والتبرّز. حفرة قطرها عشر سنتمترات. كانت جزءً من أجسادنا »[1]، وكأنّ كل ما فيها جُهِّز خصيصا لتعذيب نزلائها سواءً من النّاحية الجسديّة أو النّفسيّة.

3. السّجان :

يُعْرف عن السّجان تولّيه أمور المساجين، وهو « **ممثّل السّلطة في السّجن، وعلاقته مباشرة بالسّجين ... وله هيمنة مرعبة على المحبوس** »[2]، وغالبا ما تكون العلاقة بينهما متوتّرة وسيّئة، يستفحل العداء بينهما بعد التّصرفات السّيئة التي يمارسها السّجان تجاه المعتقل من تعذيب، وتعنيف، وإهانة، وسّب وشتم وغيرها من التّصرفات، ممّا يُنَمِّي الحقد والازدراء داخل المسجون، وغالبا ما يتم وصفه بالجلاد من شدّة قسوته وغلظة قلبه.

السجّانون في أدب السجون قسمان؛ منهم الطيب، ومنهم الشرّير، كما هو الحال في روايات سجن الاستعمار مثلا[3]، وهو التقسيم الذي نكاد لا نجد له أثرا في رواية **تلك العتمة الباهرة**، إذ قليلا ما نعثر على السجّان الطيّب. إنّ سجّان تازمامارت مجرّدٌ من الإنسانية، وهو منافق، يسعى وراء مصلحته الشّخصية من وراء مساعدته للسّجناء أكثر من كونه متعاطفا مع حالتهم، وهذا ما نجده في تصرّفات أحد السجانين وهو **مفاضل** الذي لم تتحرّك عاطفته قبل أكثر من خمسة عشر سنة في العمل في ذلك المعتقل تجاه المعتقلين،

[1] – الرواية، ص9.

[2] – واضح الصمد، السّجون وآثارها في الآداب العربيّة، ص222.

[3] – ينظر : سمر روحي الفيصل، السجن السياسيّ والرواية العربيّة، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 1983، ص49.

وعمل على جعل حياتهم أكثر تعقيدا فهو يهددهم ويشتمهم في كلّ فرصة تسنح له، وهذا ما نجده في كلامه مع المعتقلين : « **في المرّة المقبلة التي تعلنون فيها إضرابا، سوف أطلق العقارب، وعندئذٍ سنرى من منّا، أنتم أم أنا، هو الجنّي حقا** »[1] .. وقد نفّذ السّجان تهديده بالفعل، وكانت النتيجة موت أحد المساجين بعد أن لدغه واحد من عقارب **مفاضل**؛ يقول **سليم** : « **لم تأتِ – العقارب – من تلقائها، أو بمحض الصدفة. فالضّابط هو الذي أطلقها في الحفرة؛ ... وإلّا كيف أمضينا خمس صيفيّات متتالية من دون أن نلمح أحد هذه الحشرات المريعة ؟ ولكن كيف استطاع ذلك الرجل أن يفعل ذلك ؟ ... ضابط الصفّ ذاك – لابدّ من أنّه برتبة رقيب أوّل – كان ينتقم منّا ليس حبّا بالنظام الملكيّ، بل حقدا على رؤسائه الذين نفوه إلى تلك المنطقة النائية لحراسة موتى أحياء، أو بالأحرى، لحراسة ناجين محكومين بالموت البطيء** »[2]، ممّا يبيّن مدى قساوة **مفاضل** وعدم حمله لأيّ شفقة تجاه المعتقلين بإطلاقه للعقارب، لا لشيء إلاّ لأنّهم سبب وجوده في ذلك السجن.

ولكنّ تعامل **مفاضل** راح يتغيّر شيئا فشيئا، فقد اكتشف – بعد حوالي ثلاث عشرة سنة – صلة قرابة بينه وبين **واكرين** أحد المعتقلين[3]، فراح يعمل على تهريب رسائل المسجونين، وأصبح يجلب لهم بعض المسّكنّات والعقاقير التي تساعد في تخفيف آلامهم الجسديّة، ولكنّ الأمر لم يكن إنسانية منه، بل سعيا وراء مصلحة شخصية بحتة؛ يقول **سليم** : « **حمل مفاضل قصاصة الورق إلى زوجة واكرين من دون أن يقول لها شيئا. وبما أنّها لا تجيد القراءة أطلعت عليها أمّ صاحبة صيدلية كان شقيقها في عداد المفقودين ... وتلقى مفاضل من صاحبة الصيدلية بعض العقاقير، خصوصا المسكنّات ومضادّات**

[1] – الرواية، ص53.

[2] – المصدر نفسه، ص54.

[3] – ينظر : المصدر نفسه، ص162-164.

الالتهاب، بالإضافة إلى مبلغ من المال. أدركتُ على الفور أنّ مفاضل وإن كان دافعه التّضامن القَبَليُّ، قد قَبِل الرّشوة »[1]؛ فقبول **مفاضل** أخذ المال نظير خدمته تلك أسقطته من خانة المساعد والمحترم للعهود القبليّة، ونقلته إلى خانة المرتشي، فلا يمكن لأي شخص أن يتغيّر بين ليلة وضحاها، فما لم تستطع الإنسانية فعله غيّره المال في طرفة عين، ويبقى المهمّ أنّ ذلك ساهم في تحسين معاملته للسّجناء، يقول **سليم** : « **درج مفاضل طوال شهرين على منحنا نصف ساعة كل يوم جمعة، للتّريض في الرّواق** ... »[2]، نلاحظ أنّ تلقي السّجان للمال ساهم في تحسين وضعية السّجناء قليلا، حتى وإن استمر العذاب والألم وعدم القدرة على تغيير حقيقة كون تازمامارت جحيما في الأرض دون ذلك الذي في السّماء.

إنْ مثّلت شخصيّة **مفاضل** الوجه الطيّب والمساعد نوعا ما للسّجان في الرّواية[3]، فإنّ الوجه الشرير والقاسي الذي يبثُّ الرّعب والعذاب مثّلته كذلك شخصيّات أخرى من بينها **القمندار** أو مدير السّجن، الذي لم يسبق لأيٍّ من المعتقلين أن رآه، فعند تردِّي صحة أحد المعتقلين لا يسمح بتقديم أي مساعدة له مهما كان نوعها، وهذا ما يظهر في هذا الوعيد الذي وجهه للسّجانين عندما حملوا إليه خبر مرض أحدهم؛ « **إيّاكم أنْ تأتوا إليّ لتخبروني أنّ فلانا مريض. لا تأتوا إلّا لتعلموني أنّه مات، لكي تصحّ حساباتي. مفهوم؟ لا أريد، من الآن فصاعدا، أن أسمع عبارة (مريض). هيّا انصرفوا ! »**[4]، ممّا يؤكد تواطؤ **القمندار** مع الموت وتزامارت كأنهما وقعا عقدا على التّمادي في تعذيب السجناء، ويتبيّن من خلال القول كذلك مدى قسوته وخشونة طباعه.

---

[1] – الرواية، ص165.

[2] – المصدر نفسه، ص174.

[3] – يحقّ لنا أن نتساءل : هل **مفاضل**، وكلّ من يشبهه، طيّبون فعلا ؟ فهة يقايض طيبته بالمال ! !

[4] – المصدر نفسه، ص156.

تظهر لا إنسانية السّجانين في ترهيبهم وتخويفهم للمساجين؛ يقول **سليم** : « ... **فتح حارسان باب زنزانتي واندفعا نحوي ... أدخلاني في جراب واسع. وراحا يجرجران الجراب باتّجاه الباب الخارجي. كنت أركل الهواء برجليّ، وتكتمُ صراخي التعليقاتُ التي كانا يتبادلانها : " أمّا هذا فسندفنه حيّا، فقد يلقّنكم هذا حسنَ السّلوك ... فما كادا يصلان إلى آخر الممر حتّى أفلتاني وسمعت أحدهما يقول لرفيقه بأنهما أخطآ ... – لكن القمندار قد أصرّ على أن يحفر هو قبره بيده. – لا إنّها مجرد صورة. فالمطلوب فقط أن نخيفهم** " ... »[1]، ممّا يعني عدم اكتفاء السّجانين بالسّخرية من المساجين وسبّهم وشتمهم ونعتهم بأسوء الأوصاف والتّسميات، والعذاب الذي يفرضه عليهم السّجن، بل يعرضونهم للترهيب والتّخويف للعب بأعصابهم وحرمانهم من كلّ شيء حتّى من الطمأنينة التي يفتقدونها أصلا بين أسوار ذلك المعتقل الذي يكفي اسمه فقط ببثّ الرعب في الأنفس.

4. التّعذيب :

عملت روايات أدب السّجون على الكشف عن الجانب التّعسفي والتّعذيب الذي يتعرّض له المعتقلُ، وهي في هذا تذهب إلى عكس ما تذهب إليه الأنظمة، التي تحاول إخفاء تعرّض السّجناء – خاصة السّياسيّين منهم – للتعذيب، بحيث تتخلّى « **السّلطة عن مبدأ اللّين والتّهديد لتلجأ إلى القوة والعنف. ها هنا تسفر السّلطة القمعيّة عن وجهها الحقيقي، وعن محاولتها تحقيق ظاهرة التّسلط – الرضوخ** »[2]. إنّ ممارسة السلطة للعنف هي سعي وراء جعل المعتقل يعترف بما يعرفه، وفي كثير من الأحيان

[1] – الرواية، ص22-23.

[2] – سمر روحي الفيصل، السجن السياسيّ والرواية العربيّة، ص43.

بما تريده السلطة. أمّا بعدها فإنّ السّجان يلجأ إلى التّعذيب لكسر إرادة السّجين، وفرض سيطرته عليه، وإلى إذلاله أيضا وبثّ الرّعب في قلبه، وينقسم التّعذيب إلى نوعين : جسدي ونفسي[1]، وفي سجن تازمامارت تعرض السجناء إلى كليهما معا.

أ. التّعذيب الجسدي :

« **إنّ الاعتداء على الجسد وإنزال العذاب والهوان به ليس مجرّد مسألة ألمٍ يُحتمل أو لا يحتمل، بل هو إيذاء الاعتبار الذاتيّ. فالجسد تحت التعذيب يتوقّف عن أن يكون ملكا للضحيّة، ويتحوّل إلى ملكية الجلاّد يتصرّف فيها كما يشاء، وبالتالي فهو يتصرّف في كيان هذه الضحيّة كما يشاء** »[2]، وعلى الرغم من أنّ **بن جلّون** لم يركّز كثيرا على التّعذيب الجسديّ، الذي يسلّطه السّجان على المعتقل، إلّا أنّنا نجد بعض العبارات التي تدلّ على ذلك، كقول **سليم** : « **آهٍ من قطرة الماء الصغيرة على قمّة الرّأس الحليق ! آهٍ من أساليب التّعذيب الصّيني المطبّق على الطّريقة المغربيّة وبوحشية ... عقاب متطاول في الزّمان، وعلى أنحاء الجسم كلّه** »[3]، بالإضافة إلى تعرّضه للضرب من طرف الضّباط يوم الاعتقال عندما حاول خنق نفسه، عندما اكتشف تورّطه في انقلاب على الملك؛ « **لم تسفر محاولتي هذه إلّا عن إثارتي لغضب أحد الجنود فعالجني بركلة على عنقي؛ و... أغميَ عليَّ ... لكن ضربة من**

[1] – ينظر : مصطفى حجازي، الإنسان المهدور – دراسة تحليلية نفسية اجتماعيّة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء – المغرب، 2005، ص129-127.

[2] – المرجع نفسه، ص133-134.

[3] – الرواية، ص22-23.

عقب بندقيّة على عظم السّاق أيقظتني »[1]، ممّا يبيّن قسوة السّجان وتفانيه في تعذيب السّجناء بطرق مختلفة.

أمّا عندما استقرّ المعتقلون في تازمامارت فقد قام أحد السّجانين بإطلاق العقارب، ممّا أدى لتعرّض أحدهم للّدغ، لكن السّجانين وبما يحملونه في قلوبهم من قسوة لم يحركوا ساكنا لا للتّخلص من العقارب، ولا لمساعدة السّجين الملدوغ؛ « **صديقي لحسين لُدغ حين غلبه النّعاس. رحنا ننادي الحرّاس بأعلى أصواتنا لكنّهم لم يأتوا إلّا عند الصّباح** »[2]، وهذا يدلّ على مدى استهتار السّجانين، وعدم اكتراثهم لأمر المعتقلين، فكلّما كان موتهم بطيئا وتضاعفت آلامهم، كلّما أحسّوا هم براحة وغبطة.

ومن ناحية أخرى نجد أنّ السّجان ليس الوحيد الذي يعمل على صبّ أشدّ وأقسى صنوف العذاب على أجساد المعتقلين، ذلك أنّ قارئ الرّواية يدرك أنّ مكان بناء السجن وهندسته قد أعدّت كي يكون بمثابة سرداب للموت البطيء، وحتى يترك أثارا لا تمحى على أجساد المساجين، فتازمامارت أعدّ كي يجعل الأجساد تتحلّل رويدا رويدا، ويذيق السّجناء أنواعا مختلفة من العذاب حسب الفصول كالبرد القارس شتاءً والحرّ الشّديد صيفا، ممّا يسبّب الآلام المختلفة خاصة في العظام، فيصاب المعتقلون بتقرّحات في البشرة والجلد، ويكاد العفن يحتّل أجسادهم احتلالا.

كما لم يمنح ضيق الزنازين فرصا كثيرة لاختيار وضعيات مناسبة للنّوم، فقد كانت الأرضيّة الإسمنتيّة العارية مفترشا لهم، ويظهر ذلك في معاناة **سليم** وباقي المعتقلين؛ « **كم أرغمني برد الإسمنت الرّطب على استبدال وضعية رقدتي بأخرى، فأستلقي على بطني، وجهي سويّة الأرض، مؤْثرا وجع الجبين**

[1] – الرواية، ص14.

[2] – المصدر نفسه، ص54.

على وجع اليدين. كانت لنا إذا، خيارات التّفضيل بين وجعَيْن، ولكن، ليس حقًّا. فقد كان على الجسم كلّه أنْ يتوجّع. كلّ جزء منه، بلا استثناء. والقبر قد أعدّ ... بحيث يتلقّى الجسم كلّ ضروب العذاب الممكنة، وأن يكابدها بأبطأ ما في البطء، وأن يبقى على قيد الحياة لكي يُسام عذابات أخرى »[1].

دون أن ننسى الحشرات المختلفة التي كانت تعشّش في عتمة الزّنازين؛ كالصراصير التّي تسبّبت في موت بعضهم، وهو ما حدث **لصبّان** أحد الحراس الملكيّين، الذي ألحق بالمجموعة لكي يموت بعد عدّة أشهر بعد إصابته بالغرغرينة جرّاء كسر في مرفقه وتكاثرت عليه الصّراصير وبدأت في التهامه، « **لقد التهمته آلاف الصّراصير والحشرات الأخرى التي هاجرت زنزاناتنا. كان الحرّاس يخشون فتح باب زنزانته** »[2]، بينما مات **عبد الملك** جرّاء تسمّمه ببيوضها التي اختلطت بخبزه الذي كان يخزّنه في جراب، ولم تسمح له عتمة الزنزانة بملاحظتها فمات بعد أيّام.

كان الغذاء أداةً اتّخذها السّجان للتّعذيب أيضا، فكان الأكل الذي يحصل عليه المعتقلون مخصّصا للحفاظ على حياتهم فقط لا غير، ولا يتّم تغييره وهو طبق من النشويات والخبز القاسي والقهوة التي لا يشبه مذاقها القهوة أبدا، ويكون أحيانا فاسدا ممّا يؤدي إلى إصابتهم إمّا بالإسهال أو الإمساك الشّديدين، وكلا الحالتين خطيرة قد تؤدي للموت كما حدث مع **بوراس** الذي مات جراء الإمساك والنّزيف أثناء محالته للتبرّز، ولم يدخل أيّ من السّجانين لمساعدته؛ وكان يصرخ عندما يشتدّ به الألم : « " **إنّي أموت بخرائي. ما عدت قادرا على التحمّل، أعطوني عقارا، أتوسّل إليكم، أعطوني أيّ شيءٍ لحلحلة كتلة الإسمنت**

[1] – الرواية، ص9.

[2] – المصدر نفسه، ص140.

هذه " ... كنت أسمعه، وأتخيّل حاله فينتابني الفزع. مثل هذا قد يصيب أيّ واحدٍ منّا. ليس بإمكاننا أنْ نرتاض، وكلّ يوم، نُطعم النّشويات البلا طعم أو نكهة »[1].

يحسّ قارئ رواية **تلك العتمة الباهرة** أنّ السّجن والسّجان كانا متواطئين معا لجعل المعتقلين يعيشون عذابا جسديا متجدّدا كعذاب **برومثيوس**[2]، عذاب يترك آثارا لا تمحى على الجسد كالوشم، تستمر في تذكير المعتقلين بالسّجن مهما طالت بهم الحياة بعد خروجهم من هناك، أو تؤدي بأرواحهم لمغادرة أجسادهم لعلّهم يرتاحون هناك في العالم الآخر.

ب– التّعذيب النّفسي :

ليس التّعذيب حكرا على الجسد فحسب، بل يتعدى ذلك ليصبح تلاعبا بأعصاب المعتقلين ونفسيّاتهم، و« **تظهر آثار التّعذيب النّفسي في كثير من الأحيان على الجسد، وكثيرا ما يمتزج كلا النّوعين [التعذيب الجسديّ والنفسيّ]، بحيث تنتج أضرار نفسيّة تستمر لأمدٍ بعيد بسبب الخوف والتّوتر والألم ... وقد تصل تلك الأضرار إلى درجة من الضّيق والمعاناة تجد في الانتحار خلاصا وحيدا. وطرق التّعذيب النّفسي تهدف إلى تدمير نفس الضّحيّة، وشخصيّتها وإشعارها بانعدام التّحكم**

[1] – الرواية، ص117-118.

[2] – تقول الأسطورة الإغريقية أنّ كبير الآلهة زوس عاقب بروميثيوس بأن أمر به فربط إلى قمّة جبل القوقاز، وسلّط عليه نسرا يأكل كبده في النهار، وفي الليل ينمو الكبد من جديد، ليعود النسر إلى التهامه من غدٍ، وظلّ على هذه الحال حتى عفا عنه كبير الآلهة.

بالبيئة أو بنفسها، أو بالوقت أو بالجسد، فهو تعذيب يورث حالة من العجز التّام وإلغاء الشخصيّة »[1].

تعتبر أوّلُ خطوة في مسار التّعذيب النّفسي الذي يهدف للحطِّ من قدر المعتقل، وتحطيم عزيمته والسّماح بتغلغل اليأس لداخله، هي حرمانه من احتياجات جسده في محاولة التّحكم به، كمنعه من الاغتسال والنّظافة ووضعه في فضاء قذر، بهدف تحطيم صورة الذّات، والقضاء على احترامها لنفسها[2].

ويمكن اعتبار الحرمان من النّظافة نوعا من التعذيب الجسدي كذلك، لأنّ تلك الأجواء القذرة التي يعيش فيها السّجين تساهم في تدهور صحّته وإصابته بأمراض خطيرة، بالإضافة إلى الوقع الكارثي والسلبي الذي يكون له على صحّة السجين النّفسية، فـ« **الوساخة الجسديّة تنسحب على الدّلالة النّفسيّة المعنويّة، على شكل وساخة ورجس وسوء. وهو من أبرز مجالات التّحقير التي يمارسها الجلادون على المعتقلين. تهدف هذه العمليّة إذا إلى إفقاد السّجين اعتباره لذاته، وخلق الصّراع داخليا بينه وبين جسده وصورة ذاته** »[3].

وفي روايتنا نجد أنّ المرحاض في زنازين تازمامارت عبارة عن حفرة قطرها عشر سنتمترات تقع في أحد أطراف الزنزانة وتنبعث منها روائح لا تحتمل، وإذ يصفها **سليم** يشير إلى أنّها أصبحت جزءا من أجسادهم، ومن الأفضل نسيان وجودها لأنّ هذا يجعلهم يقاومون مصيرهم في تلك الحفرة فيقول : « **الأفضل أن نسارع إلى نسيان وجودها [حفرة قضاء الحاجة]، لكي نكفّ عن اشتمام روائح البراز والبول؛ لكي**

[1] – شرين محمّد حسن سليمان، دراسة تحليليّة لنماذج روائية من أدب السجون، ص111. وينظر كذلك : مصطفى الحجازي، الإنسان المهدور، ص147-151.

[2] – ينظر : المرجع نفسه، ص141.

[3] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

نتوقف عن الشمّ إطلاقا. ولكي نفعل، لا ينبغي أنْ نسدّ أنوفنا. لا، إطلاقا، بل ينبغي أن ندع أنوفنا مفتوحة ونتوقّف عن الشمّ. في البداية، كان الأمر شاقّا. كان دربة، عُتْها لابدّ منه، اختبارا ينبغي اجتيازه بأي ثمن »[1]، والتّعود على القذارة والروائح كان أسلوبا يعتمده المعتقلون للمقاومة، ومواجهة لمحاولة كسرهم وتحطيم معنويّاتهم، خاصة مع تقليل السّجانين لكميّة الماء القذر الذي يقدم لهم، ولا يكفيهم للاغتسال والشّرب في آن واحد، إذ يقدّر نصيب الواحد منهم بخمس لترات يوميّا، ممّا لا يسمح لهم بتنظيف أجسادهم.

وإلى جانب هذا يكون التّعذيب النّفسيّ كذلك بحرمان المساجين من أشياء بسيطة، والدّفع بهم إمّا للانهيار العصبي أو للجنون أو التّخلي عن الرّغبة في الحياة، كما حدث مع السّجين **لعربي**، الذّي فقد عقله وأصيب بالجنون بسبب عدم تمكّنه من التدخين الذي كان مدمنا عليه، وتعذّب بسبب رغبته الملحّة في الحصول على سيجارة واحدة،؛ فحاجته تلك دفعت به لإذلال نفسه والتّقليل من شأنه، وعرض نفسه على السّجان عندما كان لا يملك شيئا آخر يقايض به لفيفة دخان، حتّى أنّه كان يتوسّل إلى السجّانين لكي يدخّنوا أمامه، فاستنشاق رائحة الدخان كان يكفيه، هذا ما تجلى في وصف **سليم** لحالة لعربي بقوله : « ... **وسرعان ما نسيت السيجارة. حتّى أنّي لم أشعر بذلك الحرمان الفظيع الذي أصاب لعربي، الرقم " 4 " بالجنون. فقد كان يصرخ، يمزّق قميصه الذي لا يملك سواه، ينادي على الحرّاس راضيا بأن يعطيهم أيّ شيء مقابل سيجارة. كان يقول : " حتّى لو كنتَ ترفض أن تعطيني سيجارة، تعال دخّن بقربي، دعني أتنشّق هذا الدّخان الذي افتقدته. خذ كلّ ما تريد ... أجل، أعلم أنّي لا أملك شيئا ... ربّما دِبري ... أهبك إيّاه فليس فيه إلّا العظام، ولكن أعطني مجّة، مجّة واحدة، ثمّ**

[1] – الرواية، ص9-10.

أقتلني " »[1]. تعذّب **لعربي** بعد حرمانه من التّدخين، ممّا دفعه لعدم التّحكم في أفعاله وأقوله خاصة أمام السّجانين، الذين كانوا يستمتعون ويتمادون في تعذيبه، فامتنع عن الطعام لمدّة شهر، لقي بعدها حتفه بعد عذاب طويل.

اتّخذ السّجانون طريقة التخويف والتّرهيب للتأثير على نفسيّة المساجين، التي كان قد تسلّل إليها اليأس والخوف من المجهول في السّجن، والخوف ممّا سيحدث في قادم الأيام، فعمل السّجان على تخويف وترهيب المعتقل بفكرة الموت والإعدام، ممّا يجعله يفقد أعصابه كما حدث مع المساجين يوم جنازة **الأستاذ / غربي؛** « **أشار عليَّ واكرين بأن ألتفت نحو اليسار. لم يهزّني ما رأيت، لكنّه أفزع الباقين على قيد الحياة : سبعة قبور حفرت في الفناء. وكنّا سبعة، كانت القبور معدّة لنا. ومن الجهة الأخرى عشرة قبور مكشوفة. لا بدّ من أنّها أُعدّت لمعتقلي الجناح الآخر** »[2]،كان عدد المساجين الباقين سبعة فأعدّت القبور حسب عددهم، لترهيبهم، أو كي تكون رسالة لهم بمصيرهم المحتوم الذي ينتظرهم، مما سبّب فزعا لهم وخوفا من اقتراب أجلهم، وكذلك حدث مع **سليم** من قبل إذ فقد قام السّجانون بإخراجه عنوة من زنزانته ممّا عرّضه لنوبة هلع كادت تفقده صوابه، فقد كان يرى الموت يقترب منه خطوة بعد خطوة، خاصة أن اختيار السّجانين لجُنحِ اللّيل لتنفيذ خطّتهم لم تكن عبثا، لأن حالة السّكون التي يكون فيها السّجين ليلا بالإضافة إلى العتمة التي تغلّف زنزانته، والدّخول عليه فجأة، وجرجرته ... كلّ هذا يساهم في زيادة نسبة الخوف والصّدمة التي سيصاب بها؛ يقول : « **بينما كنت مستغرقا في أحلام يقظتي فتح حارسان باب زنزانتي واندفعا نحوي، وما لبثا أن أدخلاني في جراب واسع. وراحا يجرجران الجراب باتّجاه الباب**

[1] – الرواية، ص46-47.

[2] – المصدر نفسه، ص187.

الخارجي. كنت أركل الهواء برجليَّ، وتكتم صراخي التعليقاتُ التي كانا يتبادلانها : " أمّا هذا فسندفنه حيّا، فقد يلقنكم هذا حسن السّلوك " ... كنت أصرخ بالآيات حتّى أسكتُّ الجميع. فما كادا يصلان إلى آخر الممرّ حتّى أفلتاني وسمعت أحدهما يقول لرفيقه بأنّهما أخطآ.

" لا، لقد أنجزنا مهمّتنا.

_ لكنّ القمندار قد أصرّ على أن يحفر هو قبره بيديه.

_ لا، إنّها مجرّد صورة. فالمطلوب فقط أن نخيفهم »[1].

كلتا الحالتين أو الموقفين، سواء موقف القبور السّبعة أو موقف تخويف سليم،كانت نتيجتهما كارثية على الصّحة النّفسيّة للمعتقلين، فقد أصيب كلٌّ من **واكرين** و**سليم** بانهيار عصبي شديد جرّاء ما تعرّضا له من تعذيب وترهيب ولعب على أعصابهما، فالأوّل راح يصرخ ويهذي بسبب الخوف والهلع لظنّه أنّهم على بعد خطوة من الإعدام، « **كان واكرين، أكثرنا فزعا، لا يني يردّد أنّه سيقاوم وأنّه لن يذهب إلى منصّة الإعدام بلا مقاومة ...**

" رصاصة في مؤخّر الرّأس ".

كان ذلك هاجسه. وكان يردّد تلك العبارة باللّهجات كلّها، بالفرنسيّة، بالعربيّة، بالمازيغتيّة :

" *Une baaalle dans laaa nuuuque* "

" قرطاسة في القفا ".

[1] – الرواية، ص22-23.

." ***Tadouat aguenso takoja'at*** "

." ***Kartassa dans takoja'at*** "

Kartassa، رصاصة، *tadouat*، *kartassa*، *tadouat*، رصاصة، *kartassa*، مؤخّر الرّأس، مؤخّر الرّأس، *kartassa* ... »[1].

أمّا الثّاني فكانت في حالة شبيهة من حالة **واكرين**، وكان يتصرّف من غير وعي بأفعاله، وأصيب بالهيستيريا، وراح يضحك بشدّة دون توقّف، رغم أنّ ما مرّ به لا يستدعي الضّحك ولا المزاح، لكن شدّة هلعه نتج عنها ردّة فعل عكسيّة دفعته لفعل ذلك؛ « **لمّا عدت إلى انفرادي استبدّ بي ضحكٌ وقهقة عصبيان، لم أقدر على أن أتمالكهما أو أن أخفّف من حدّتهما. جعلت أضحك وأضحك ضاربا الأرضيّة بقدميّ. فقد كنت أعلم أنّه مجرّد استفزاز ومحاولة لإرهابنا** »[2].

يمكن عدّ الفضاء الذي عزل فيه المعتقلون عن العالم، من أدوات التّعذيب النّفسي، فضيق الزّنزانة والظلام الذي يحيط بهم ليل نهار كفيل بالتّأثير على نفسيّتهم، وجعلهم يصابون بالرّهبة والخوف من المجهول؛ فمن من الناس يستطيع أن يتخيّل بأنّه يمكن أن يبقى في تلك الحفرة لثمانية عشر عاما، دون أن يفقد عقله أو يموت.

في الأخير يسعنا القول أنّ التعذيب الذي يطال المساجين؛ سواء أكان نفسيّا أم جسديّا، يترك أثارا وجراحا على جسد وروح السّجين لا تندمل، حتّى لو وصل لدرجة عاليّة من التقبّل والتعوّد كما وصل إليها

[1] – الرواية، ص187-188.

[2] – المصدر نفسه، ص23.

سليم الذي أصبح لا يحسّ بالألم وكأنّه جرّد من حواسه؛ « **كنت لا أشعر بشيء ولا أحسّ بالألم في أيّ موضع منّي. لا، مثل هذه الحال لم أبلغها إلّا بعد سنوات من الأوجاع** »[1].

5. الموت :

يعرّف الموت بأنّه مفارقة الرّوح للجسد، لكنّ للموت معنى آخر في سجن تازمامارت، حيث دفن الأحياء في الزنازين، ولعل الموت يكون خلاصا من ذلك المكان الذي يشبه القبر على أيّ حال.

من أصل ثلاثة وعشرين سجينا ممن كانوا في الجناح "ب" مع **سليم** نجا ثلاثة فقط، وأفلتوا من قبضة ملك الموت، المتّشح بالوقار والجلال، كما أنّ **سليم** لم يعد يتفاجأ من اقترابه لحصد روح أحد من زملائه، لأنّه تعوّد عليه وأصبح يعرفه من رائحته، كما أنّه ألفه بسبب كثرة قدومه لعتق الأرواح المعذّبة في تازمامارت، « **بعد كلّ الذين قضوا خلال ثمانية عشر عاما، كانت نشأت ألفة بيني وبين الملاك عزرائيل الذي يبعث به اللّه لحصاد أرواح الموتى. كنت أراه متواضعا، متجلببا بالبياض، صبورا ومطمئنا. كان يخلّف وراءه عطرا من الجنّة ... أُدرك أنّه عَبَرَ من النّسمِ البارد الذي يهبّ على المعتقل، وأدرك أنّه غادر عندما تفوح روائح عطرة في أرجاء زنزانتي. وكان ذلك أجمل بكثير من صورة الموت ذي الهيكل العظمي حامل المنجل الكبير** »[2]؛ ملك الموت، إذن، متواضع وصبور ومطمئن، له رائحة الجنة، يخلّفها وراءه، فيدرك سليم أنّ أحد أصحابه في ذمّة الله. لا يفاجئ الموت **سليما** ورفاقه، لوجود دلائل تخبرهم بقرب قدومه كزقزقة طائر الخبل الذي أصبح رماز للموت، ونذير شؤم ينذر باقتراب خروج روح أحدهم، « **وأثناء اللّيل يصدح الخبل بغنائه المشؤوم، إيذانا بالأجل الوشيك ... مع الوقت تعلّمنا أنّ المريض يموت**

[1] – الرواية، ص10.

[2] – المصدر نفسه، ص204-205.

بمضيّ خمسة عشر يوما على سماع ذلك الصّوت المشؤوم »[1]، وإلى جانب صوت طائر الخبل أصبح للموت رائحة نافذة ترافق صوت ذلك الطّائر تميّز قدومه، « **للموت رائحة. مزيج من الماء الأجاج والخلّ والقيح. مزيج جافٌ وحاد. ولطالما ترافق صياح الخبل مع تلك الرّائحة النافذة** »[2].

يجد قارئ الرّواية تناقضا في رأي شخصيّة **سليم** حول الموت فمن جهة يشبّه رائحته بالقيح ويبرز الجانب البشع فيه وتلك الرّائحة المقزّزة التي ترافقه، وهذا إن دّل على شيء فهو يدّل على خوفه وكرهه لشيء اسمه الموت، وهي صفة يشترك فيها بني البشر، بينما في عبارة أخرى يصوّر عزرائيل بصورة تشّع بالإجلال والوقار ويقترن قدومه برائحة عطرة شذيّة من الجنّة، وهذه المفارقة جاءت من تغيّر الشّخصيّة في حدّ ذاتها، ففي البداية لم يتعوّد ويتقبّل وجوده في السّجن، فما بالك بتقبل فكرة الموت الذي يستمّر في حصد الأرواح الواحدة تلو الأخرى دون انقطاع، ومع مرور الزّمن وصل **سليم** لدرجة عالية من صفاء السّريرة والتقبّل خاصّة في جانبه الرّوحي وعلاقته بربّه، ممّا جعله يرى الموت بشكل مغاير، وأنّه موعد للّقاء مع الخالق.

تذكر الرواية سبب وطريقة موت أغلب ضيوف الجناح "ب" في سجن تازمامارت، وهو يذكر مراسم الدّفن التي تقام لهم، فبعضهم لم يتم غسلهم حسب تعليمات الشّريعة الإسلاميّة، ولكنّهم في المقابل يغطّون بعد طبقة الكلس الحارق، الذي يستعجل تحلّل الجثث، ويبقى الأستاذ **غربي** هو الوحيد الذي حظي بمراسم دفن كاملة.

تعدّدت الأسباب والموت واحد مثلما يقال، ومن ثمّ فإنّ من نزلاء تازمامارت من مات بسبب الجنون أو الأمراض التي نخرت أجسادهم ومن سوء التّغذيّة، فمثلا **بوراس، إدريس، فلّاح** والكثير غيرهم أسلموا

[1] – الرواية، ص140-141.

[2] – المصدر نفسه، ص183.

أرواحهم بسبب المرض فالأوّل مات بسبب الإمساك جراء سوء الهضم والأكل السّيء الذي يقدّم لهم، بينما الثاني كان يعاني من آلام مبرحة في العظام والمفاصل، أمّا الثالث فبسبب مشاكل في المسالك البوليّة، ممّا أدّى إلى احتباس البول في مثانته حتى الموت؛ « **كان فلّاح قد أصبح عاجزا عن التبوّل. فتوفي إثر أوجاع لا تحتمل. توقف عن الكلام. صار يهذي مردّدا كلامه، يتمتم، يصرخ، يضرب الباب بقدميه** »[1].

أمّا آخرون فعمدوا إلى الانتحار والتّخلي عن ما بقي لهم من أيام يعيشونها، بسبب تردّي حالتهم النّفسية، وفقدوا الشّغف والرّغبة في الحياة فلا وجود لأيّ شيء يدفعهم للمقاومة، ولم يعد لهم أمل في الخروج من تازمامارت، كما فعل **عبد القادر** الذي استسلم لملك الموت، واستعجله بابتلاعه لأداةٍ حادّة، فقد حكايات **سليم** الوسيلة الوحيدة التي تجعله يقاوم ويتشبّث بالحياة، وحين توقف هذا الأخير عن سرد القصص بسبب المرض، ازدادت حالة **عبد القادر** النّفسيّة سوءً، فأقدم على وضع حدٍّ لحياته، « **لقد استسلم للموت؛ كان انتحارا، لأنّه تقيّأ دمًا، فلابدّ من أنّه ابتلع أداةً حادّة** »[2].

أمّا **حسين** و**لعربي** فقد انتهجا طريق الانتحار والموت ببطء عن طريق الإضراب عن الطّعام، خاصّة **لعربي** الذي كان يعاني من الإدمان على التّدخين، ولم يستطع نسيانه، فأصبحت روحه تطلب الموت لعتقها من العذاب الذي تقاسيه، « **لعربي المسكين أعلن إضرابا عن الطّعام وترك نفسه يموت. خلال شهر بأكمله ظلّ أنينه الخافت مسموعا :**

" أريد أن أموت. لِمَ يبطئ الموت في قدومه ؟ من يؤخّر مجيئه، ويمنع نزوله إليّ ... كم هو صعب أنْ نموت حين نريد الموت ! فالموت لا يبالي بي. ولكن دعوه يمرُّ، أحسنوا وفادته ! فهذه

[1] – الرواية، ص183.

[2] – المصدر نفسه، ص95.

المرّة سوف يأخذني أنا. سوف يحرّرني ... وداعا يا رفاق ! إنّي راحل، من المؤكّد أنّي راحل، وهناك سأدخّن سيجارة لا تنتهي ... ".

أخطأه الموت مرارا، ولم يخطفه إلّا بمضيّ أسبوع على تلك اللّيلة التي تراءى له أنّه أبصره »[1].

كان **لعربي** متشتاقا للموت، فعندما يعيش الإنسان في جحيم يغدو الموت أمنية وحلما يستعجله، كأنّه الخلاص والطريق للتملّص والإفلات من المعاناة والآلام التي أَلَمَّتْ به.

أمّا **ماجد** فقد جمع بين الجنون والانتحار، فتسبّب فقدانه لعقله في وضعه حدّا لحياته، لظنّه أنّ الطّريق الوحيد للهروب من تلك الحفرة هي الخروج محمّلا على الأكتاف للقبر، وأنّ الكلس الحارق يحيي الموتى، فراح يستحضر شخصيّة **موح** في خياله ويحدّثها، ويَعِدُ الآخرين باقتراب الفرج والهروب من السّجن، ويخبرهم أنّ كلّ زملائهم الذين ماتوا، ليسوا أمواتا بل كانوا فقط يتظاهرون بالموت، وهم في انتظارهم خارج السّجن، « **وحده ماجد استطاع أنْ يشنق نفسه في ذلك المعتقل. وربط كلّ ملابسه بحيث جعل منها حبلا لفّه حول عنقه وشدّه بكلّ ما أوتي من قوّة، ثمّ علّق طرف قميصه بكوّة التهوية واستلقى على الأرضيّة ضاغطا برجليه على الباب، ما أدّى إلى اختناقه** »[2].

لم يكن **ماجد** هو الوحيد الذي فقد عقله **فحميد** و**موح** و**رشدي** سبقوه، لعلّ جنونهم ذلك يخفّف عنهم العذاب ولو قليلا، لكن ذلك كان السّبب الذي أودى بحياتهم، « **كان رشدي متكدّرا، مصدوما، وخلال اقتحام القصر قال لي أنّه سيستسلم. كان يرتعد ... عندما التقينا مجدّدا كان ذلك في سجن القنيطرة ... كان يقول إنّه لم يفعل شيئا، وإنّها غلطة فظيعة، إنّه ظلم ... كان لا يتحدّث إلّا عن الثّأر**

[1] – الرواية، ص47.

[2] – المصدر نفسه، ص111.

والقتل. لقد أصيب بداء الحقد الذي لا شفاء منه. كان يريد أن يقتل الجميع ... كلّ الذين كانوا سببا في سجنه. وعندما تمّ نقلنا إلى تازمامارت، لم يطل به الأمر حتّى فقد عقله، ما عاد يدري ماذا يقول ... لم نر رشدي قبل موته، والحارس الذي جاء لمعاينة الوفاة أصيب بنوبة ذعر. فعندما سلّط ضوئه على وجه الفقيد، تراجع إلى الوراء مطلقا صيحة ذعر وغادر مسرعا »[1]، كان الحقد الذي ينخر داخل **رشدي** السّبب في جنونه وموته، فمثل هذه المشاعر السلبيّة تعمل على جعل الإنسان يخسر نفسه، وتؤثّر على نفسيّته وتهلكه من الدّاخل، لينتقل ويؤثّر على خارجه (جسده) وتمهّد له الطّريق للموت، خاصّة في مكان كتازمامارت الذي يشبه الجحيم.

نجد في الرّواية أنّ سجن تازمامارت أصبح مرادفا لكلمة الموت، نظرا للأحداث المؤلمة التي حدثت بين أسواره، والطّريقة البشعة التي مات بها أغلب المعتقلين، ممّن تكفّل ملك الموت بحصد أرواحهم المعذّبة، فرغم الصّورة المخيفة التي يرسمها ويضعها العقل البشري للموت، إلّا أنّ القارئ يجد في ثنايا الرّواية أنّ الموت أصبح أرحم على هؤلاء من السّجن الذي حبسوا فيه وأصبحوا من المنسيّين مذ دخلوه.

6. أساليب المقاومة والتّسليّة في السّجن :

وسط العتمة والظّلام أين يخفت النّور وينعدم، وبين جدران سجن **تازمامارت**، يقبع معتقلون خسروا كلّ ما كانوا يملكون؛ خسروا حياتهم، وآمالهم، وحرّيتهم، وتغيّر قدرهم وسار كلّ شيء عكس توقعاتهم، فكيف لهم أنْ يعيشوا في مكان طُوّع ليكون قبرهم، وطريقا مختصرة للموت والجنون، وكيف عساهم يقاومون

[1] – الرواية، ص51-52.

عدوا كالزّمن، تواطأ مع سجانيهم، يمرّ بوتيرة أبطأ من المعتاد، فيحسّون بالدّقائق ساعات والسّاعات أيّام، أمّا الفراغ والهدوء فيدفعان المعتقل إلى الشعور وكأنّه محتجز في متاهة المينوتور اللّامتناهية التي لا مفرّ منها، ما يزيد من العذاب الذي سلّط عليه.

دفعت الحاجة، إذن، المعتقلين إلى ابتكار ألعاب ونشاطات تساعدهم على تمضية الوقت والقضاء على الفراغ، وعلى مقاومة الموت البطيء، ونسيان الآلام الجسديّة والنّفسيّة التي تسيطر عليهم، وليشعروا بأنّهم ما زالوا على قيد الحياة ومتشبّثين بها.

أصبح لأغلب المساجين أدوار ومهمّات يقومون بها تجاه المجموعة، فكان **غربي** " رقم 10 " الإمام الذي يتلوا عليهم كتاب اللّه العزيز، بينما أخذ **كريم** " رقم 15 " على عاتقه مهمّة حساب الوقت والزّمن، « **إذا كان غربي اضطلع بتلاوة القرآن بصوت عال في بعض المناسبات ... كان كريم قد عيّن حارسا للوقت _ لقّب بالروزنامة أو البندول النّاطق _** »[1]، أمّا **سليم** فكان الحكواتي الذي يسرد عليهم القصص والحكايات ويلقي عليهم القصائد الشّعريّة، « ... **كنت، أنا، الرّاوية. تمّ اختياري بالإجماع، لأكون الحكواتي، ربّما لعلم بعضهم أنّ أبي كان راوية وسارد حزازير، أو ربّما ببساطة، لأنّهم سمعوني وأنا ألقي قصائد أحمد شوقي ... كنت أحفظ غيبا " أزاهير الشر " و " الأمير الصّغير** " »[2]، ليكون الأدب بهذا كإكسير يمنح نزلاء تازمامارت جرعة من الحياة والوقت، ويفتح أعينهم على عالم حرموا منه، ويسرحوا بخيالهم بعيدا عن زنازينهم. كان **سليم** يحكي لهم قصصا يعرفها، ويقرأ عليهم روايات حفظها عن ظهر قلب من الأدب العالمي كرواية **الغريب لألبير كامو**، فقد كانت ذاكرته قويّة كوالده، أو يبتدع قصصا مشوّقة لإثارة

[1] – الرواية، ص85.

[2] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

انتباههم وإمتاعهم، ويخوض في سرد ووصف أحداث أفلام سبق له أن شاهدها. وتحوّل الأدب لغذاء يتغذّى عليه السّجين **عبد القادر** " رقم 2 " يبقيه على قيد الحياة، وأصبح يلّح على **سليم** أنْ يحكي له، « **سليم، يا صديقي، يا أديبنا، يا صاحب المخيّلة الرّائعة، اروِ لي عطشي، فبالنّسبة إليّ، كلّ عبارة هي كوب ماء، عذب، ماء رقراق ... أرجوك، احكِ لي حكاية، حكاية طويلة مجنونة. أحتاج إليها. إنّها أمر حيوي بالنّسبة إليّ، إنّها رجائي، هوائي، حرّيتي ... أرجوك لا تدخلني في النّسيان. مرضي لا يبرأ إلّا بالكلمات والصّور ... تجعلني أسافر وأنسى أنّ جسدي مجرَّح. أحلّق، أسير، أبصر نجوما وأسهو عن الوجع الذي يطحن كليتيَّ، ويدمّر كياني. أنسى من أنا وأين أنا** »[1]، ويوم مرض **سليم** ولم يعد قادرا على الحكي، فَقَدَ **عبد القادر** أي رغبة في الحياة، وكأن الحبل الذي يربطه بهذا العالم انقطع فجأة، فأقدم على الانتحار.

أمّا **مصطفى** فكان يملك حسّ دعابة عالٍ، ويجعل المعتقلين يبتسمون ويضحكون ليقاوموا القسوة والذّل الذي يتعرّضون له بإلقاء النّكات والمزاح، ما يعمل على جعل السّجن مكانا مستساغا ولو قليلا؛ « **الضّحك ! كنّا نحاول أنْ نضحك من خلال سرد بعض النّكات القديمة ... فضحك اليأس له لون ورائحة، وضحكنا، نحن، يضاعف شقاءنا. كان مصطفى لا يكفّ عن المزاح، وعن التّلاعب بالكلمات، وابتكار الألقاب لكلٍّ منّا** »[2]، بالإضافة إلى قدرة **مصطفى** لزرع الابتسامة على وجوه من يرون الموت رابضا في زوايا زنازينهم.

[1] – الرواية، ص94.

[2] – المصدر نفسه، ص77.

ابتكر المعتقلون أيضا طريقة يقاومون بها الرّوتين والتّكرار الذي يعيشونه في تلك الحلقة المفرغة التي يقيمون فيها، باللّعب بأوراق متخيّلة للتّسليّة والتّسريّة عن أنفسهم، « **لم يكن ورق اللّعب متوفّرا لدينا، لكن بوراس " رقم 13 "، كان يوزّع علينا أوراقا وهميّة، نتحلّق مجموعات من أربعة ونخترع ألعابا بورق مكشوف : نطابق الأرقام والأنواع، ونسرّي عن أنفسنا بسرد القصص** »[1].

طوّر السّجن حواس المساجين ومهاراتهم، وإن خسروا كلّ ما يربطهم بالخارج، إلّا أنّهم أصبحوا يعرفون كلّ تحركات السّجانين بالخارج، كما كانوا يعلمون إن كان الجوُّ ممطرا أم مشمسا، بسبب فهمهم لتغريدات طائر يحطّ على كوّة تهوية زنزانة **سليم** ليقتات؛ « **كان يتّخذ وضعيّة المراقب وينوّع تغريده إذا لَحَظَ حركة حول المعتقل. وهكذا كنّا نعرف سلفا أنّ الحراس قادمون حسب التنويعات في زقزقة ثيبيط ... كان ثيبيط يعلمنا بهطول المطر. فقد كنّا لا ندري شيئا من أحوال السّماء. ولكن بفضل الدوري أصبحنا نعرف أحوال الطّقس ... وأصبحنا نعلم، من طريقته في التّغريد أنّ شيئا ما يحدث في الخارج. ومع الوقت والخبرة أصبحت ملمّا برموز زقزقاته المختلفة** »[2]. شكّل هذا الطائر حلقة وصل بين المعتقلين والفضاء الخارجي لزنزاناتهم، فبفضله أصبح لهم مخبر ينبّئهم ما يحدث خارجا، لقد دفعت حاجة هؤلاء إلى الأمل، ورغبتهم في إثبات وجودهم واتصالهم بالعالم الخارجيّ إلى تبنّي هذا الطائر ليكون بمثابة مخبر وأنيس يعيد لهم وجودهم بعدما حكم عليهم أن يكونوا من المنسيّين.

[1] – الرواية، ص72.

[2] – المصدر نفسه، ص146-147.

قام معتقلو تزمارت، إذن، بابتكار مثل هذه الممارسات والألعاب لا للتّسرية والتّسلية فقط وتمضية الوقت، بل الأصحّ هو القول أنّها نوع من مقاومة الموت البطيء والآلام الجسديّة والنّفسيّة أوّلا، ولإثبات وجودهم ثانيا، ولو لأنفسهم رافضين أن يكونوا منسيّين كما أراد سجّانوهم.

7. صورة الأب والأم :

يتذكّر الإنسان في أشّد لحظات حياته قسوة وحزنا أقرب النّاس إليه كالأقارب والعائلة، وعلى وجه الخصوص يتذكّر والديه، فما بالك بمعتقلين يواجهون الموت في كلّ لحظة في تازمامارت، في عزّ اشتياقهم لهم بعد فراق طويل، إذ تظلّ صورة أبويهم قابعة في فكرهم سواء في وعيهم أو في لا وعيهم، وفي رواية **تلك العتمة الباهرة** نجد حضورا قويا للأم ولمشاعر الشّوق لها، فمثلا شخصيّة **موح** رغم جنونه وفقدانه لعقله إلّا أنّ أكثر شيء كان يهذي به هي أمه، التي ألمّ الشوق به لرُؤياها، خاصّة لأنّها مشلولة لا تتحرّك، « ... **لست جائعا. أريد أنْ أرضع، بلى، يا يمّة، أعطيني ثديك. كم أحتاج ثديك، دعيني أضع رأسي على هذا النّدي فيما أصابعك تسرّح شعري. أعذريني، يداك لا تتحرّكان وأنا فقدت شعري** »[1]، تبيّن هذه العبارة مدى قوّة العلاقة بين الابن والأم، فكلّ المعاناة والألم الذي يعانيه إلّا أنّ صورة أمّه وشوقه لها استبدّ به حتّى آخر لحظة في حياته.

أمّا **سليم**، فكان يحمل بداخله مشاعر كثيرة تجاه والديه فمن جهة أمٌّ قويّة وأب مستهتر يحبُّ نفسه لا غير، يقول متحدّثا عن والدته : « **كنتِ مذهلة ... وما استسلمتِ يوما أو هانت عزيمتك. قوّة**

[1] – الرواية، ص75.

شخصيّتك كانت هي حرّيتك. ورغبتك في الحياة الكريمة تجعلك أجمل وأقوى »[1]، بينما نجد شخصيّة والده ضعيفة ويستمرّ بوصفه بأنّه زير نساء، « **كان زوجا سيّئا وأبا غائبا، أو كان ببساطة أبا منهمكا بذاته، وبعشقه للصّبايا دون سنّ العشرين، وهوس الأناقة، وعشقه للحفلات والمتعة والمزاج** »[2]، بالإضافة إلى هذا فإنّ **سليما** نشأ في كنف أمه التي طردت والده بكلّ حزم تلك الأم التي تعمل وتشقى لأجل أبناءها ليكون دورها مزدوجا وتجمع بين حنان الأم وقوّة الأب، « **لا أرضى بتنابلة في بيتي، ولا بالمتأخرين في دراستهم. أنا منذ الآن أمّكم وأبوكم** »[3]، وتربيّة الأم للأبناء بهذه الطّريقة جعل **سليما** قريبا من أمّه ومتعلّقا بها أكثر من والده الذي كان عديم المسؤوليّة ولم يساهم في تربيته ممّا شكّل حاجزا بينهما؛ « **في نظري لم يكن ذلك الرّجل الذي لم أره إلّا لماما، واحدا من أسرتنا، وبفضل أمي لم أُبْدِ نحوه أيّة مشاعر، لا طيّبة ولا قبيحة** »[4]، والطّفل يحتاج إلى كلا والديه وبعده عن والده في مرحلة الطّفولة زاد من تعلّقه بوالدته ما خلق له عقدة أوديب، فيقول: « **لطالما نسيت أنّ لي أبا. لم أكن أفكّر فيه ولم يكن من بين الصّور التي تراودني** »[5].

بعيد مجزرة الصخيرات كان **سليم** يحمل في قلبه مشاعر متناقضة ومتضاربة عن والده، فتارة كان يبحث عنه لقتله ومن جهة أخرى قد يكون يبحث عنه لإنقاذه، « **لم أطلق رصاصة واحدة. كنت مذعورا؛ أصوّب سلاحي باتجاه أناس. أعترف لك بأنّي كنت أبحث عن أبي. ولا أدري إن كنت أفعل لكي**

[1] – الرواية، ص70.

[2] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] – المصدر نفسه، ص33.

[4] – المصدر نفسه، ص101.

[5] – المصدر نفسه، ص99.

أنقذه من المجزرة أم أطلق عليه النّار. هذا السّؤال صار هاجسي »[1]، وهذا يؤكد ويدلّ على إصابته بعقدة أوديب حيث يكون الابن منجذبا لأمّه أكثر من والده ويكرهه، كما حدث في أسطورة أوديب بحيث قتل **أوديب** والده **لايوس**، التي استنبط منها **سيغموند فرويد** هذه العقدة.

قرب **سليم** من والدته كان يشعره بحالها وهو في تازمامارت، ويستمرّ في مخاطبتها كما لو كانت بقربه، « **أمّاه، أشعر بأنّك حزينة. قولي في سرّك إنّي مسافر، إنّي رحلت لاكتشاف عالم مغلق، وهآنذا أكتشف نفسي، وأدرك، بمضيّ كلّ يوم، من أيّ طينة جعلتِني. إنّي ممتنٌ لذلك. أقبّل يديك** ... »[2]، وكان حبّه لأمّه وقوّتها وشعوره بمرضها من بين الأشياء التي جعلته يقاوم صعوبة ومرارة ما يعيشه في السّجن على أمل أن يراها ويعود إلى حضنها ، « ... **ولي عزيمتي بأن لا أستسلم ... عزيمة جائرة، صلبة، لا تقبل بأيّ تسوية. من أين لي مثلها ؟ من زمن بعيد، من الطّفولة، من أمي التي طالما رأيتها تقاتل لكي تربينا، أنا وإخوتي وأخواتي، ولم ينل منها القنوط يوما، ولم تتخلّ يوما** »[3]، كانت صورة الأم القويّة وكفاحها قدوة لابنها، ما زرع فيه قوّة وعزيمة لا يقبل بالاستسلام، مما جعله يكافح لمدّة ثمانية عشر عاما، خاض فيها صراعا مع الموت، ومع سجن تازمامارت، والسّجانين، ومع والده الذي تبرّأ منه أمام الملك والصّحافة.

[1] – الرواية، ص71.

[2] – المصدر نفسه، ص70.

[3] – المصدر نفسه، ص32.

8. التصوّف :

التصوّف هو عبادة اللّه حبا له وليس خوفا منه، دون انتظار المقابل بل التّقرّب إليه بغية مرضاته والتّماهي فيه، وأن تقتل الشّهوات والرّغبات التي تبعدك عنه، لتحيا في اللّه وتزهد وتكون حرّا متوكّلا توكّلا تاما عليه، وواثقا فيه للوصول لأقصى درجات الوجد والعشق الإلهي.

يجد قارئ رواية **تلك العتمة الباهرة** أنّ **لسليم** علاقة خاصّة بخالقه، وأصبح لا يرجو منه شيئا بل يحبّه حبّا خالصا لا ينتظر من ورائه منفعة، « **كنت أصلي إلى اللّه غافلا عمّا قد يحدث، وعمّا قد تؤدّي إليه الصّلوات، لم أكن أتوقّع شيئا بالمقابل. وبفضل الصّلاة كنت أبلغ أفضل ما فيّ بتواضع من ينفصل، شيئا فشيئا، عن جسمه مبتعدا عنه لكي لا يكون عبد عذاباته وشهوات هذياناته ... فالإيمان باللّه، وحمده على رحمته، والإقامة على ذكره، وتمجيد روحانيته، كلّ هذه كانت، بالنّسبة إليّ، ضرورة طبيعية لا أرجو في مقابلها شيئا، أيّ شيء على الإطلاق. كنت قد بلغت حالا من التّخلي والزّهد اللّدني الذي يمدّني بعزاء لا يستهان به** »[1]، وبهذا يكون **سليم** راضيا بما قدّر له، وزاهدا ولا قانطا من رحمة اللّه، كلّ ما يفعله كان حبّا دون انتظار المقابل متأثرا بالمتصوّفين المسلمين، الذين يعبدون اللّه حبا فيه وليس خوفا من عقابه، « **كنت مستعدّا لأن أترك لهم جسدي، شريطة ألّا يستولوا على نفسي، على روحي، على إرادتي. وكنت في ذلك أستعيد سيرة المتصوّفة المسلمين الذين ينعزلون ويتخلّون عن كل شيء حبّا باللّه ليس له نهاية. بعضهم وقد اعتاد الألم، يدّجن الألم ويجعله حليفا. فيحمله الألم إلى ربّه حتّى يفنى به ويغيب عن رشده** »[2]، وهكذا سار **سليم** على نهج المتصوّفة، وعمد إلى التّخلي عن

[1] – الرواية، ص184.

[2] – المصدر نفسه، ص97.

جسده الذي يعاني من آلام المفاصل المبرحة، وجميع الآلام الأخرى كالأسنان، والمعدة، وبعبارة أخرى يتخلى عن جسده الذي يتحلّل ببطء، ويرقى بروحه ويزور أماكن وأشخاص يحبّهم كوالدته، « **أغادر زنزانتي وأرحل على أطراف أصابعي. أترك ورائي قوقعة جسدي، وأحلّق نحو الشّرفات المشمسة لتلك الدّار الواسعة ... ومنذ صدور الحكم عليّ بالموت البطيء بتحلّل الجسد، لم أكف عن ذكر اللّه، إنّ جوار الموت، وامتهان كلّ كرامة، والاضطهاد الشّاذ الذي يرود من حولي، قد حثّني على سلوك سبيل هذه العزلة العذبة** »[1].

حملت الرّواية عدّة مصطلحات صوفيّة كالوجد؛ « **خفيفا ونهما، أتهيّأ لبلوغ الوجد، تلك الحال التي لا يكبّلني فيها شيء، حيث لا أقيم صلات لا بالكائنات ولا بالأشياء. أنأى عن كلّ شيء، عن ذات نفسي وعن الآخرين ... أجدني في وحدة رائعة، حيث وحده النسيم، ما زال يستطيع أن يهبّ على شرفات عزلتي. وإذ ذاك أبلغ الافتتان ... هنا، أصير في اللامتناول. أحلّق مثل طائر سعيد** ... »[2]، قليل من النّاس أو المتصوّفين من يصل لدرجة الوجد، لأنها تحتاج تركيزا وجهدا كبيرا للوصول إليها، والانفصال عن الجسد، ومن المصطلحات الأخرى التي نجدها، مغادرة الجسد، النّور الأسمى، التّأمل، جماع الذّات ...

[1] – الرواية، ص123.

[2] – المصدر نفسه، ص63-64.

9. الحالة النّفسيّة :

الحالة النفسيّة لأي لإنسان يمكن أن تكون سلبيّة أو إيجابيّة تماما مثل الصّحة الجسديّة التي تكون إمّا جيّدة أو سيّئة، وفي سجن تازمامارت عرف السّجناء أنواعا عديدة من التّعذيب والقسوة والقهر[1]، ممّا جعل حالتهم النّفسيّة تضطرب.

حملت الرّواية عدّة عواطف ومشاعر، لانتمائها لأدب السّجن على وجه الخصوص، الذي يعبّر عن معاناة المعتقلين وآلامهم والتّجربة البشعة التي خاضوها في مكان لا يتمنى أيّ شخص التّواجد فيه، ممّا جعل **تلك العتمة الباهرة** وعاءً حاملا لِكَمٍّ هائل من الأحاسيس كالحزن، وفرح، ومشاعر كثيرة سلبيّة و إيجابيّة كالأمل.

سيطرت ثنائيّة التّشاؤم والأمل أو التّفاؤل على الرّواية؛ فتارة نجد الطّاقة الإيجابيّة المتمثّلة في الأمل والتّفاؤل تسيطر على أجوائها رغم كلّ العتمة والسّوداويّة التي يعيش فيها المعتقلون، ممّا يدفعهم للمقاومة والصّمود في وجه المعاناة والظّلم الذّي يطالهم، وتارة أخرى تتسلّل الطّاقة السّلبيّة المتمثّلة في التّشاؤم إليهم لتساهم في توجيه خطواتهم إلى الهلاك والموت أو للاكتئاب وجعل حياتهم أكثر بؤسا، فمثلا نجد **سليما** متفائلا في حين ومتشائما في حين آخر ما يجعل حالته النّفسيّة تتأرجح بينهما، فكانت أمّه وجدّته القويّتان تمدّانه بالقوّة على المقاومة واكتسب أملا كبيرا في خروجه من المعتقل، « **كنت أفكر في هاتين الامرأتين [والدته وأمّها] عندما أيقنت أنّي سأنجو، وأنّي لن أهزم. كان حدسي بذلك قويّا، واضحا، لا لبس فيه ... أيقنت في سرّي، أنّهم لن ينالوا منّي** »[2]، فكان حدسه يخبره بنجاته من تلك الحفرة لكن أحيانا

[1] – وقد سبقت الإشارة إلى هذه النقطة.

[2] – الرواية، ص96-97.

في عزّ ذلك العذاب والآلام التي يقاسيها، يتسلّل اليأس إلى قلبه ويعمل على دفع كلّ المشاعر التي تغمره كي يعيش فأيّ إحساس أو شعور يزيد عن حدّه ينقلب إلى ضدّه وهو الموت، « **كنّا لا نشعر لا بالفرح ولا بالحزن. والأسى لا يعرف طريقا إلينا، فما إن يستسلم أحدنا لشرك الكآبة يهلك ... فلا أحد يتفهّم بكاءك؛ ولا أحد يكفكف دمعك. ومن يستسلم للبكاء يعلم أنّ أيامه أصبحت معدودة. كانت الدّموع تنهمر لغسل الوجه الذي سيلثمه الموت قريبا** »[1]، كانت الكآبة عدوّ المعتقلين اللّدود، فمن يقع في فخّها تقوده للهلاك، ولم يكن **سليم** فقط من وقع في فكّ التشاؤم فحتّى **رشدي** وقع فيه، لكن هذا لم يكن الشيء الذي قاده للموت، بل حقده للذين كانوا سببا في معاناته تلك، فمشاعر الحقد والغلّ كالفيروسات تستمر بنخر ذات الإنسان من الدّاخل حتى تفنيه ممّا أدّى **برشدي** للجنون ثمّ الموت، « **لم يطل به الأمر حتّى فقد عقله، وما عاد يدري ماذا يقول، لكنّه بقي مقيما على حقده. كان يحثّه من الدّاخل، يتآكلّه، يجعله غريبا عن ذاته** »[2].

كانت الظروف التي يعيش فيها المعتقل في السّجن نوعا من التّعذيب خاصّة الفضاء الدّاخلي المغلق. وحرمان شخص من شيء ما يجعله مرغوبا خاصة إن كان من الحاجات الضرورية، وفي تازمامارت أدخلوا حفرة معتمة لا ضوء فيها يسودها الظّلام والعتمة، وهذه الظّروف تجعل الحالة النّفسيّة للسّجناء مضطربة، فأصبح موت أحدهم يعطيهم سعادة وغبطة، لأنّه يمنحهم فرصة الخروج إلى لخارج، والتمتع بالضوء والنّور الذي حرموا منه، لكن تلك الغبطة والسّعادة لا تستمرّ طويلا حتّى تتحوّل لتأنيب الضمير جرّاء الإحساس بالسعادة عند موت من كان بالأمس بينهم، « **عند المساء، خجلت من الغبطة التي جلبها لي دفن أحد رفاقي. ألهذا الحدّ فقدت الإحساس بالرّحمة، وبلغت بي القسوة حدّا جعلني أطلب النّفع من وفاة**

[1] – الرواية، ص119-120.

[2] – المصدر نفسه، ص51.

أحدنا؟ الحقيقة المرّة ، العارية، كانت ماثلة أمامي. فإذا كان موت قريبي يتيح لي رؤية الشّمس، ولو هنيهات، فهل يجعلني ذلك تائقا لرحيله ؟ ... فقد صار الدّفن، بالنّسبة إلينا، مناسبة للخروج ورؤية بصيص من الضّوء »[1]، رغم قساوة المشهد إلّا أنّه حقيقيّ؛ فحرمانهم من الشمس ورؤيتها من جديد بسبب دفن أحدهم يجعلهم سعداء، لا لأنّهم عديمو الرحمة، ولكنّه السّجن والحرمان ما دفعهم إلى التصرّف بتلك الطريقة

تعرّض المعتقلون لانهيارات عصبية جعلت حالتهم النّفسية تتدهور، كما حدث لكلّ من **واكرين وسليم**، لتعرّضهما لصدمات نفسيّة وتعذيب بسبب سياسة التّخويف والتّرهيب التي عمد إليها السّجانون، **فواكرين** عندما شاهد سبعة قبور محفورة حسب عددهم ممّا أخافه وأصبح يهذي وظنّ أنّه ميّت لا محالة، أمّا **سليم** فدخل عليه السّجانون وأدخلاه في جراب ويرهبانه بفكرة دفنه حيا، « **لمّا عدت إلى انفرادي استبدّ بي ضحك وقهقهة عصبيان، لم أقدر على أن أتمالكهما أو أخفّف من حدّتهما** »[2]، أمّا الصّدمة الحقيقية التي تعرّض لها فكانت يوم رأى انعكاس صورته في المرآة صدفة بعد ثمانية عشر عاما، « **إنّ ذلك الوجه، المثلّم، المجعوك، المخطّط بالتّجاعيد والغموض، المذعور المرعب، كان وجهي، أغمضت عيني. وللمرّة الأولى منذ ثمانية عشر عاما أقف قبالة صورتي. أغمضت عينيّ. أحسست بالخوف. خفت من عيني الزّائغتين؛ من تلك النظرة التي أفلتت، بمشقّة من الموت؛ من ذلك الوجه الذي شاخ وفقد سيماء إنسانيّته** »[3]، فرغم مغدرته لتازمامارت، إلّا أنّ السجن رفض الانفصال عنه، فظلّ كشبح يطارده في كلّ تفاصيل حياته، وظلّ عالقا في ذاكرته وخياله.

[1] – الرواية، ص119-120.

[2] – المصدر نفسه، ص23.

[3] – المصدر نفسه، ص212.

وأخيرا يمكن القول أنّ رواية **تلك العتمة الباهرة** حملت عدّة مواضيع في طياتها، وكان السّجن موضوعها العام والتّيمة المهيمنة عليها، وقد تكون اشتركت في عدّة مواضيع مع روايات أخرى في أدب السّجون كالموت، والتعذيب، والحالة النّفسية للمعتقلين إلّا أنّ لهذه الرّواية ميزتها الخاصة التي تميّزها عن باقي الرّوايات كموضوع التّصوف.

خاتمة

خلص هذا البحث إلى النتائج التالية :

- ليس أدب السّجون في الأدب العربي وليد هذا العصر بل يعود تاريخ ظهوره للعصر الجاهلي.
- اقتصر حضور أدب السّجون، من العصر الجاهليّ حتى العباسيّ، على الشّعر فقط، بينما تبنّته في العصر الحديث والمعاصر الأجناس الأدبيّة الوافدة على الأدب العربي من الغرب، كالرّواية، والقصّة القصيرة، والمسرح، وأنواع أخرى من الكتابات كالشهادة والسيرة الذاتية.
- أكثر ما ساهم في كثرة الإنتاج الأدبي الرّوائي في أدب السّجون في الوطن العربي، هي المشاكل والأزمات السّياسيّة التي تعاني منها أغلب الدّول كالمغرب مثلا.
- عكست الرّواية الألم، والمعاناة، والمشاعر التي تُلِّمُ بالمسجونين في تازمامارت وجرعات العذاب والمرارة التي تطال المعتقلين جرّاء مكوثهم في سجن أريد به أنْ يكون قبرا لهم.
- حملت الرّواية عدّة مواضيع في ثناياها، برز موضوع السّجن كتيمة مهيمنة فيها، وعرضت مواضيع عديدة لها علاقة مباشرة ببعضها، كالتّعذيب النفسي والجسدي الذي يتعرّض له المعتقل، مبرزا الجانب الوحشي للسّجان الذي عمدت الرّواية إلى اظهاره، بالإضافة إلى تيمة الموت، والتصوّف، والحالة النّفسيّة التي عمدت الرواية إلى الوقوف عندها، لتبيّن الأثر الذي خلّفه السّجن في أنفس المساجين. وهناك الكثير من المواضيع غير هذه التي اهتمّت بها مذكرّتنا، ولم يسع هذا البحث لذكرها كلّها.
- تشابك المواضيع التي عرضتها الرّواية، ووجود علاقات تربط بين التّيمة والأخرى.

يمكن القول أنّ رواية **تلك العتمة الباهرة** عبارة عن رسالة حملت قضيّة إنسانيّة، قضيّة معتقلين قضوا ثمانيّة عشر عاما في السّجن ظلما، عاشوا في سوداويّة وعتمة فرضت عليهم ، وعذاب متجدّد مع كلّ

يوم يقضونه في الزّنزانة، ومات منهم من لم يتحمّل قساوة الاعتقال، ونجا منهم قليل، يحملون ذكرى تازمامارت حتّى يحين موعد لقائهم مع بارئهم.

وفي الأخير أتمنّى أنْ يوّفقني اللّه في عملي هذا، وأعتذر عمّا ورد في بحثي المتواضع من أخطاء دون قصدٍ منّي، فالإنسان يصيب في شيء وتغيب عنه أشياء.

ملاحق

أوّلا / التّعريف بالكاتب الطّاهر بنجلّون:

هو روائي وشاعر مغربي من الجيل الثّاني من الكتاب المغاربة، الذين يكتبون باللّغة الفرنسيّة، ولد في 1 ديسمبر 1944 بفاس، انتقل هو وعائلته إلى طنجة أين التحق بمدرسة فرنسيّة، ودرّس الفلسفة في جامعة بالرّباط لغاية سنة1971. وبعد قرار الحكومة تعريب تعليم الفلسفة، غادر الأراضي المغربيّة نحو فرنسا، أين تحصّل على شهادة عليا في علم النّفس.

بدأت رحلة **بنجلّون** مع الكتابة في باريس أين عمل ككاتب مستقل لصحيفة **لوموند** *Le monde*، ثمّ بدأ بنشر كتاباته في الشّعر والرّواية والقصّة، وتحصّل على جائزة الغونكور عن روايته ليلة القدر (1987).

من مؤلفاته : **حرودة** 1973. **طفل الرمال** 1985. **تلك العتمة الباهرة** 2001. **رجال في أكفان الصّمت**. **ديوان ذاكرة المستقبل** 1979. **ديوان في غياب الذاكرة** 1980. المجموعة القصصيّة **الحب الأوّل هو دائما الأخير** 1995.

ثانيا / ملخص رواية تلك العتمة الباهرة :

تناولت الرّواية قصّة حقيقيّة **عزيز بنبين**، الذي قضى ثمانية عشر عاما في سجن تازمامارت، الذي يعتبر من أقسى السّجون في المغرب إن لم يكن في العالم بأسره.

السّارد هو شخصيّة **سليم** / **عزيز** الذي يسرد أحداث الرّواية ومعاناة معتقلي تازمامارت، آتي بدأت مع انقلاب الجنرالات على حكم الملك الحسن الثاني يوم 10 جويلية 1971، فقادوا كلّ ضباط مدرسة هرمومو العسكريّة إلى قصر الصخيرات مكان تواجد الملك، وأوهموهم أنّهم سيقومون بمناورات بالرّصاص الحي، ليجدوا أنفسهم في خضمّ انقلاب عسكري على الحكم، وبعدها يتمّ زجّهم في السّجن بتهمة لم يرتكبوها، ولم يعلموا بحقيقة ما كانوا مقبلين عليه أصلا.

قضى **سليم** ثمانية عشرة سنة في السّجن ظلما، يرى أصدقاءه ورفاقه يموتون أمام ناظريه الواحد تلو الآخر، ويتألمون جراءَ الأمراض التي تصيبهم، ويفقدون عقولهم أو ينتحرون، ولم يكن هو أفضل حالا منهم في تلك الحفرة التي وضعوا فيها ليموتوا ببطء شديد، فحتّى الموت تواطأ مع سجانيهم الذين لا يفوّتون فرصة لترهيبهم وتعذيبهم، فكان ككيان يأتي كلّ مرّة ليخطف أحدهم، وأصبحوا من المنسيين، في ذلك المكان الذي بني ليكون قبرا يجعل أجسادهم تتفسّخ وتتحلّل

رغم الأوجاع والقسوة والظّلم الذّي كان **سليم** يقاسيه، إلّا أنّه تقبّل ما قدّره الله له ليعيشه، وعمد على محو كلّ ما يزيد من عذابه في زنزانته كالذّكريات، فالعيش في الماضي وعلى آثاره يسارع في تقدّمه خطوة خطوة نحو الموت، فعمد لنزع الحقد من قلبه، وسامح كلّ من كان سببا في شقاءه وقاده إلى تلك الحفرة، حتّى والده الذي تبرأ منه أمام الصّحافة ليحافظ على علاقته بالملك. وأمام كلّ معاناته والآلام التي تفتك بجسده إلا أنه لم يفقد الأمل في خروجه من السجن يوما ما، وعمل على ترك جسده ومغادرته بروحه،

ليتخلّص ممّا ألمّ بجسده كما يفعل المتصوّفة المسلمون. هَرَّبَ المساجين رسائل من تازمامارت بمساعدة أحد السّجانين، ما أسفر عن انتشار قضيّتهم، وبعد تدّخل وضغط من منظّمة حقوق الإنسان أطلق سراحهم بعد أن مات أغلبيّتهم في السّجن، وتمت إعادتهم إلى هرمومو للمعالجة وإعادتهم لأهلهم بعد ذلك.

رغم مغادرة سليم السّجن كما كان يحلم دائما، وعودته إلى حضن أمّه التي كان لقاؤها من الأسباب التي جعلته يقاوم في المعتقل ويتحدّى الموت، إلّا أنّ روحه المعذّبة لم تشفَ، وظلّ شبح تازمامارت قابعا فيه، في ذكرياته، في روحه، وفي جسدّه الذي ترك فيه السّجن آثارا لا يمحوها الزّمن مهما طال.

ثالثا / بعض الصور :

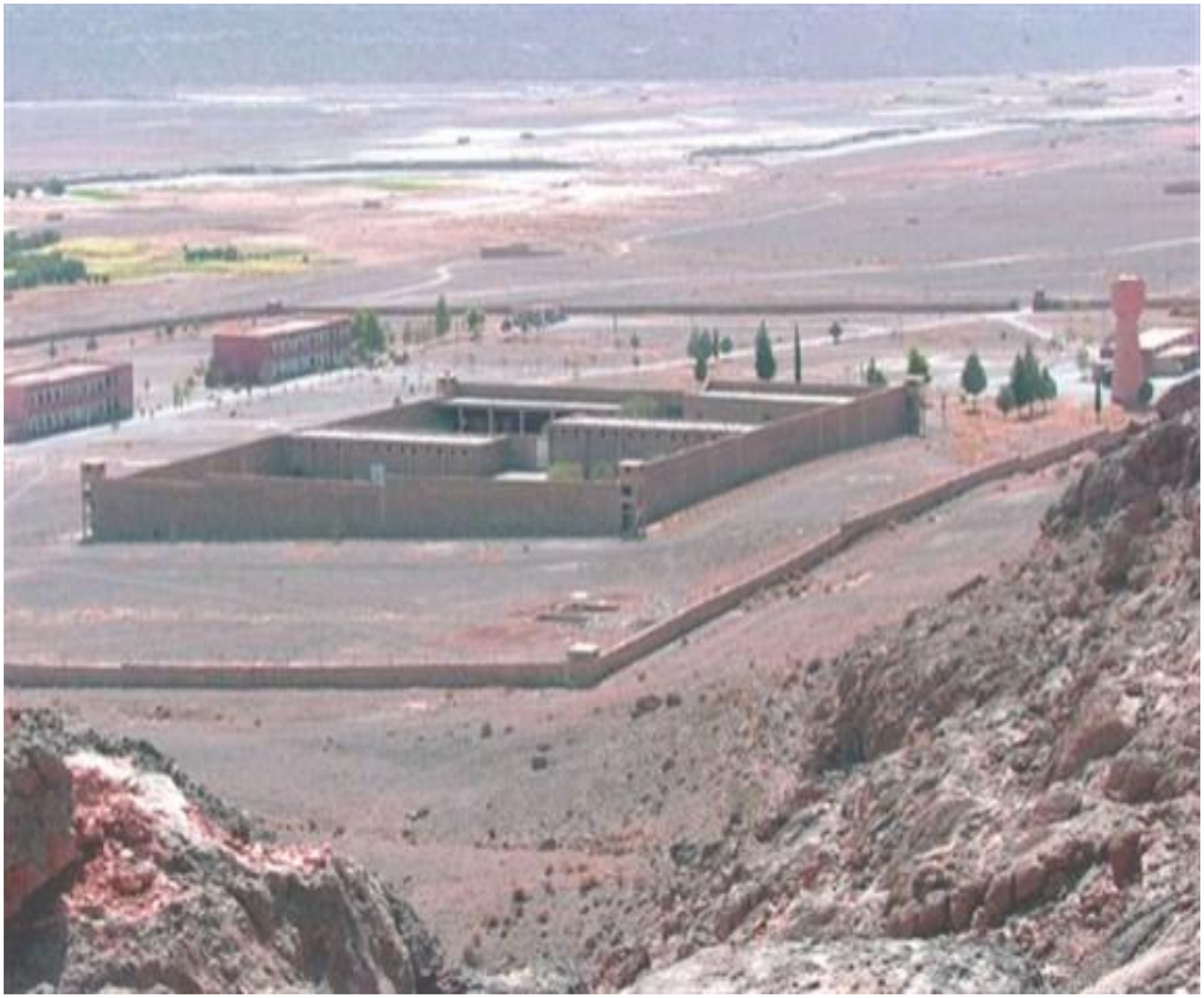

صورة سجن تزممارت من الخارج.

صورة سجن تزمامارت من الداخل.

عزيز بنبين.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر :

بنجلون (الطاهر)، تلك العتمة المبهرة، ترجمة : بسّام حجّار، دار الساقي، ط1، لبنان، 2005.

المراجع :

1. الأصفهاني (أبو الفرج)، كتاب الأغاني، تحقيق : إحسان عبّاس وإبراهيم السعّافين وبكر عبّاس، دار صادر بيروت، ط3، 2008.
2. إسماعيل (عز الدّين)، الأدب وفنونه دراسة ونقد، ط9، دار الفكر العربي، القاهرة، 2013.
3. بحراوي (حسن)، بنية الشكل الروائيّ (الفضاء – الزمن – الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت – الدار البيضاء، 1990.
4. بنبين (عزيز)، تازماموت، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، الرباط، 2011.
5. الجمحي (ابن سلام)، طبقات فحول الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
6. حجازي (مصطفى)، الإنسان المهدور – دراسة تحليلية نفسية اجتماعيّة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء – المغرب، 2005.
7. سرور (طه عبد الباقي)، الحسين بن منصور الحلاّج شهيد التصوّف الإسلاميّ (244 – 309 هـ)، مؤسّسة هنداوي، المملكة المتّحدة، 2014.
8. سليمان (شيرين محمد حسن)، دراسات تحليليّة روائيّة من أدب السّجون، رسالة ماجستير، جامعة القدس، فلسطين، 2015.

9. الصّمد (واضح)، السّجون وأثرها في الآداب العربيّة من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط1، بيروت 1995.

10. الفيصل (سمر روحي)، السجن السياسيّ والرواية العربيّة، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 1983.

11. منصور (إسحاق إبراهيم)، الموجز في علم الإجرام والعواقب، ط3، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1989.

12. منيف (عبد الرحمن)، شرق المتوسّط، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – دار التنوير للطباعة والنشر، ط 19، لبنان، 2016.

13. نعيسة (حسن)، شعراء وراء القضبان – من الأدب السياسي، دار الحقائق للطباعة والنشر، ط1، بيروت –دمشق، 1986.

14. يوسف (شعبان)، أدب السجون، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 2014.

المجلاّت :

1. بدلة (خطيب)، " أدب الاستبداد "، مجلّة رواق ميسلون، مؤسّسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ع 7-8، نوفمبر 2022، صص151-158.

2. بلكريش (نادية)، " الزمن النفسيّ في الرواية السجنية العربيّة – رواية " تلك العتمة الباهرة " للطاهر بن جلون أنموذجا "، مجلّة رواق ميسلون، مؤسّسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ع 7-8، نوفمبر 2022، صص 64-84.

3. بن نصر (عواطف) ويعقوبي (قدورية)، " أثر السجن والأسر في شعر رثاء الذات في العصر الأندلسيّ – نماذج مختارة – "، مجلّة الموروث، المجلّد 9، العدد 2، جامعة مستغانم، 2021، صص336-347.

4. بوعيطة (محمّد)، " اشتغال الذاكرة في الرواية السجنية – سرديات عبد القادر الشاوي أنموذجا "، مجلّة رواق ميسلون، مؤسّسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ع 7-8، نوفمبر 2022، صص 49 – 63.

5. رمضان (سلوان رشيد) و(فاضل) أحمد عبد السلام، " قراءة في انقلاب الصخيرات بالمغرب عام 1971 "، مجلة الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 6، جامعة الواد، الجزائر، 2015، صص 155-172.

6. الرشيدي (علاء)، " المسرح داخل المعتقل، المسرح داخل السجن الآداب والعروض المسرحية في تمثيل الإبداع المعتقل وفي رواية السجن العقابي "، مجلّة رواق ميسلون، مؤسّسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ع 7-8، نوفمبر 2022، صص85-111.

7. زيناي (طارق)، " ظاهرة شعر السجون وتجلّياتها في الأدب العربي القديم "، مجلّة القارئ للدراسات الأدبية واللغويّة والنقدية، جامعة الوادي، العدد 4، جوان 2020، الجزائر، ص252-265.

8. نهار (حازم)، " أدب السّجون السّوري : مساحات أدبية كفاحية وجمالية "، مجلّة رواق ميسلون، مؤسّسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ع 7-8، نوفمبر 2022، صص17-25.

المقالات الإكترونية :

باللغة العربية :

1. الأشرف (حسن)، أين أصبحت ظاهرة " أدب السجن " في المغرب، *Independent* عربية، https://www.independentarabia.com
2. حسن (محمّد علي)، بالصور" مسرحيات الأسرى " .. ترجمة حركيّة لأدب السجون، /https://www.elwatannews.com
3. حسو (عبد الناصر)، متلازمة السجن والمسرح .. خارج الزمن داخل الوطن، مجلّة أوراق، /https://www.syrianwa.net
4. حمدونة (رأفت)، أدب السّجون التّعريف والمميزات، دنيا الوطن، https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2016/01/24/391920.html
5. شريف (سعيدة) حوار أجرته مع الروائيّ في الرباط لجريدة الشرق الأوسط في 29 يونيو 2003 العدد 8979 ./https://archive.aawsat.com
6. الموشي (سالمه)، " انتزاع الحكاية من ألم الضحيّة من سجن تازمامارت إلى كلّ الدنيا ... !! "، يوميّة إيلاف الإلكترونية، جوان 2004، https://elaph.com/Web/Archive/1087926835110428800.htm

باللغة الفرنسيّة :

'' *Annexe : Le Maroc '', cultures et conflits,[en ligne], 13-14, printemps-été, 1994, http:// Journals.openedition.org/conflits/191 ; DOI.*

المواقع الإلكترونية :

موقع الجزيرة (اليوتوب) *https://www.youtube.com/@aljazeera*

فهرس الموضوعات

مقدّمة

الفصل الأوّل : أدب السجون في الأدب العربيّ 9

أوّلا / تعريف أدب السّجون 10

ثانيا / أدب السّجون في الأدب العربي 12

1. في العصر الجاهلي 13
2. في صدر الإسلام 14
3. في العصر الأموي 15
4. في العصر العباسي 16
5. في العصر الأندلسيّ 17
6. أدب السّجون في العصر الحديث والمعاصر 18

ثالثا / أسباب وظروف ظهور أدب السّجون في الوطن العربي عامة والمغرب خاصّة 22

الفصل الثاني : تجربة السجن في تلك العتمة الباهرة 28

أوّلا / حول رواية تلك العتمة الباهرة 29

ثانيا / تيمات الرّواية 33

1. فضاء السّجن 33
2. فضاء الزّنزانة 34
3. السّجان 36
4. التّعذيب 39
   - أ. التّعذيب الجسدي 40
   - ب. التّعذيب النّفسي 42
5. الموت 49
6. أساليب المقاومة والتّسليّة في السّجن 53
7. صورة الأب والأم 57

8. التصوّف 59

9. الحالة النّفسيّة 62

خاتمة 66

الملاحق 69

قائمة المصادر والمراجع 76

فهرس الموضوعات 82

ملخّص

تناولت هذه الدّراسة موضوع أدب السّجون، الذي عرف انتشارا واسعا في العالم العربي مؤخرا، حيث تطرقنا في فصل نظري إلى تعريف المصطلح، والعوامل الّتي ساهمت في ظهور أدب السجون في الأدب العربيّ، متتبّعين مسار حضوره في الأدب العربي من العصر الجاهلي للعصر الحديث والمعاصر في مختلف الأجناس الأدبية، مركزين على جنس الرّواية، وقمنا باستخلاص أهم المواضيع الّتي تضمّنتها روايتنا : **تلك العتمة الباهرة** في فصل تطبيقي للكاتب المغربي **الطّاهر بنجلّون**، المستوحاة من شهادة حقيقية لأحد معتقلي سجن تازمامارت بالمغرب.

حملت رواية **تلك العتمة الباهرة** عدّة مواضيع في ثناياها، تخصّ السّجن، والمعاناة التي يعيشها المعتقلون في عتمة زنازينهم، كالموت، التّعذيب، السّجان، والتصوّف، بالإضافة إلى تركيز الكاتب على الحالة النّفسيّة للمساجين.

الكلمات المفتاحيّة: أدب السّجون، تلك العتمة الباهرة، الطاهر بنجلون، الرّواية السّجنية.

Résumé:

Cette étude a traité le sujet de la "littérature carcérale", qui s'est largement répandue dans le monde arabe ces derniers temps. Nous avons abordé dans un chapitre théorique sa définition, et les facteurs qui ont contribué à son émergence, retraçant le chemin de sa présence dans la littérature arabe de l'ère pré-islamique à l'ère moderne dans divers genres littéraires, en mettant l'accent sur le genre du roman, et nous avons extrait les sujets inclus dans le roman arabe dans la littérature carcérale dans un chapitre appliqué, à travers le roman « Cette aveugle absence de lumière » de l'écrivain marocain "Taher Benjelloun", qui est inspiré du témoignage authentique d'un détenu de la prison "Tazmamart" au Maroc.

Le roman « Cette aveugle absence du lumière » comporte plusieurs thèmes, liés à l'emprisonnement et aux souffrances vécues par les détenus dans l'obscurité de leurs cellules, tels que la mort, la torture, le geôlier et le mysticisme, en plus de l'accent mis par l'écrivain sur l'état psychologique de les prisonniers.

Mots-clés: littérature carcérale, le roman "Cette aveugle absence du lumière", Taher Benjelloun, la prison "Tazmamart".